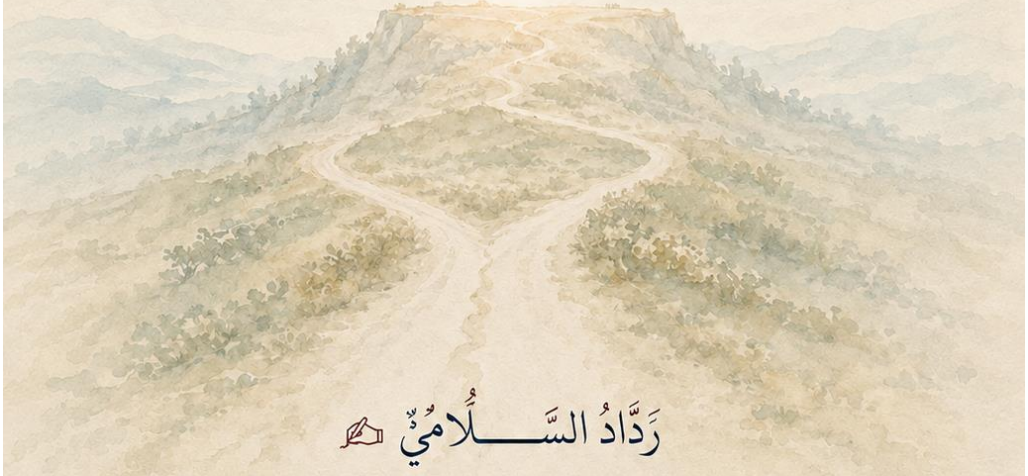
سُورَةُ الأَعْرَافِ

خَرِيطَةُ النَّفْسِ وَمَفَارِقُ الْمَصِيرِ

رِحْلَةٌ تدَبُّرِيّةٌ فِي الصِّراعِ
بَيْنَ نِدَاءِ الْوَحْيِ وَسُلْطَانِ الهَوى



رَدَّادُ السَّـــلَامِيّ ✍

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

خَرِيطَةُ النَّفْسِ وَمَفَارِقُ الْمَصِيرِ

رِحْلَةٌ تَدَبُّرِيَّةٌ

فِي الصِّرَاعِ بَيْنَ نِدَاءِ الْوَحْيِ وَسُلْطَانِ الْهَوَى

رداد السلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةُ الْكِتَابِ

حين يقرأ القرآنُ الإنسانَ

ليست سورة الأعراف سورةً تُقرأ من خارج النفس؛ لأن قارئها لا يلبث أن يجد نفسه داخل مشاهدها. فما يبدو في ظاهرها تاريخًا للأمم، ينكشف عند التدبر تاريخًا للإنسان نفسه: تاريخ ضعفه حين يُفتن، وكِبره حين يُؤمر، وخوفه حين يُهدَّد، ولهاثه حين يتبع هواه، وانكساره حين يعود إلى ربه.

إنها سورة المكاشفة الكبرى؛ لا تكتفي بأن تخبرنا بما فعله إبليس، أو كيف كذّبت الأقوام رسلها، أو كيف طغى فرعون، أو كيف عبد بنو إسرائيل العجل؛ بل تكشف البذور النفسية التي أنبتت تلك المواقف: «الأنا» حين تستكبر، والمصلحة حين تعمي، والعادة حين تتحول إلى حُجّة، والقوة حين تنسى مصدرها، والمعرفة حين تنفصل عن التقوى، والدين حين يُختزل في موروثٍ لا يحكم الحياة.

وفي هذا تكمن فرادة السورة؛ فهي لا تجعل الصراع بين الحق والباطل واقعةً بعيدةً جرت بين أنبياء وأقوام مضوا، بل تجعله حدثًا يتجدد في كل قلب. ففي داخل الإنسان قابلية آدم إلى الزلل والتوبة، وقابلية إبليس إلى المعرفة والاستكبار، وخوف السحرة قبل السجود، وشجاعتهم بعده، ولهاث المنسلخ من الآيات، وحنين بني إسرائيل إلى الصنم بعد نجاتهم من فرعون.

وهكذا لا تسمح السورة للقارئ أن يقف متفرجًا على تاريخ الآخرين؛ بل تدفعه إلى أن يسأل نفسه: أيّ هذه الأصوات يتكلم في داخلي؟ وأيّ هذه الطرق أسلك؟ وهل أنحني للحق حين يظهر، أم أبحث عن قياسٍ إبليسي يبرر لي الامتناع؟

ينطلق هذا الكتاب من المعنى الظاهر للآيات كما يدل عليه اللسان العربي والسياق ونظم السورة، ثم ينتقل منه إلى التأمل في حركة النفس وسنن الاجتماع ومفترقات المصير. فلا يُنتزع التأمل من فراغ، ولا تُحمَّل الآية فكرةً غريبةً

عنها؛ بل يبقى النص هو المركز الذي تنطلق منه القراءة وتعود إليه.

فالتدبر ليس أن نستعمل القرآن لنقول ما نريد، بل أن ننصت إليه حتى يقول فينا ما يريد. وليس أن نكسو أفكارنا السابقة بألفاظ الآيات، بل أن نسمح للآيات بأن تراجع أفكارنا، وتكشف مخابئ أهوائنا، وتعيد بناء موازيننا.

لذلك تبدأ القراءة بالظاهر: من المخاطَب؟ وما المعنى الذي يؤديه اللفظ؟ وما موقع الآية في سياقها؟ ثم تنفذ إلى ما وراء الحدث من قانونٍ نفسي أو اجتماعي، من غير أن تدّعي أن التأمل هو المعنى الوحيد للآية، أو أنه يغني عن التفسير الموروث المعتبر.

فالتفسير يحدد أرض المعنى، والتدبر يسير فوقها متأملًا آفاقها. وإذا انفصل التدبر عن التفسير تحول إلى خيال لا ضابط له، وإذا توقف القارئ عند التفسير من غير أن يعبر إلى أثر الآية في قلبه وحياته، فقد يعرف الطريق ولا يمشي فيه.

وسورة الأعراف بُنيت على حركة متصلة بين البداية والنهاية. تبدأ بكتابٍ أُنزل ليُنذر ويذكّر: ﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾.

وتنتهي بإنصاتٍ للكتاب، وذكرٍ لله، وسجود: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾.

﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾.

وبين الكتاب والسجدة تُعرض مأساة الإنسان كلها: يسمع الأمر ثم يختار موقفه منه. إبليس سمع ولم يسجد، وآدم زلّ ثم عاد، والأقوام سمعت رسلها فاستكبرت، والسحرة رأوا الآية فسجدوا، وورثة الكتاب عرفوا ثم باعوا، والمنسلخ أوتي الآيات ثم أخلد إلى الأرض.

كأن السورة تقول إن المصير لا تحدده كثرة ما سمع الإنسان، بل الكيفية التي أجاب بها ما سمعه. فالوحي قد يبلغ الأذن، لكنه لا يتحول إلى هداية حتى ينزل إلى القلب، ثم يظهر أثره في القرار.

ويجري في السورة خيط أسود لا يكاد ينقطع: **الاستكبار.**

به بدأ سقوط إبليس، وبه ردّ الملأ دعوات الأنبياء، وبه تحدّت ثمود الآية، وبه ادّعى فرعون حق التحكم في ضمائر الناس، وبه تحايل أصحاب السبت على الأمر، وبه انسلخ صاحب الآيات من معرفته.

تتغير المظاهر، لكن المرض واحد: ذاتٌ لا تحتمل أن يكون فوقها أمر، ولا تطيق الاعتراف بأنها أخطأت.

ولذلك لا تقدم سورة الأعراف الجهل بوصفه أصل المشكلة دائمًا؛ فقد يكون الإنسان عالمًا بالحق، لكنه لا يريد الخضوع له. إبليس عرف خالقه، والمنسلخ حمل الآيات، وورثة الكتاب درسوا ما فيه، وفرعون رأى المعجزات؛ لكن المعرفة لم تتحول إلى سجود.

وهنا تضع السورة يدها على مأساة المعرفة حين لا تهذب النفس: قد يصبح العلم أداةً أكثر دقةً لخدمة الهوى. فبدل أن يقود العقل صاحبه إلى الحق، يتحول إلى محامٍ بارعٍ عن

رغباته. وبدل أن تكسر المعرفة كبره، تمنحه لغةً أبلغ للتعالي.

ومن هنا لا يكون السؤال: ماذا تعرف فحسب؟ بل: ماذا فعلت بك معرفتك؟ هل جعلتك أعدل، وأتواضع، وأسرع رجوعًا؟ أم زادت قدرتك على صناعة الأعذار؟

وفي مقابل الاستكبار يجري خيط آخر مضيء: **العودة**.

قال آدم وزوجه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾.

وقال السحرة بعد أن أبصروا: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقال بنو إسرائيل حين سقط في أيديهم: ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وقال موسى: ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾.

إن السورة لا تقسم الناس إلى معصومين وهالكين، بل إلى من يخطئ ثم يعترف، ومن يخطئ ثم يستكبر. فالزلل جزء

من ضعف الإنسان، لكن تحويل الزلل إلى فلسفةٍ ومشروع هو الطريق الإبليسي.

آدم حاكم نفسه فارتفع، وإبليس دافع عن نفسه فهبط. وبين الاعتراف والتبرير تتحدد وجهة الإنسان.

ولهذا لا تُقرأ مشاهد الوعيد في الأعراف قراءةً تفضي إلى اليأس، بل إلى اليقظة. فالسورة التي تكشف النار تفتح باب الرحمة، والتي تصف الخسارة تعلمنا دعاء النجاة، والتي تحذر من الانسلاخ تقول: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وتحضر في السورة «الأعراف» بوصفها موضعًا مرتفعًا بين مصيرين؛ ترى منه العين الجنة والنار، وأهل الطاعة وأهل الاستكبار، والبدايات بعد أن تحولت إلى نهايات.

ويمكن القول إن السورة نفسها «أعراف» معرفية؛ ترفع القارئ فوق ضجيج اللحظة، ليرى عاقبة الطريق قبل أن يصل إليها. فالمعصية في بدايتها ثمرة لامعة، لكنها من ارتفاع الوحي تظهر انكشافًا وندمًا. والطغيان في أوج

سلطانه يبدو جبلًا، لكنه من الأعراف يظهر غريقًا لا يملك إنقاذ نفسه. والسجود يبدو للمتكبر هبوطًا، لكنه في ميزان النهاية هو الارتفاع الحقيقي.

إن القرآن يعلّم الإنسان أن يرى الأشياء من جهة عاقبتها، لا من جهة لمعانها الأول. وهذه البصيرة هي من أعظم معاني الهداية؛ لأن أكثر الأخطاء لا تقع بسبب عجز الإنسان عن رؤية البداية، بل بسبب عجزه عن رؤية النهاية المختبئة فيها.

وليست هذه الرحلة بحثًا عن جمالٍ لغوي يزيّن المعنى، مع أن لغة القرآن تفتح أبواب الجمال كلها؛ وإنما هي محاولة لجعل اللغة جسرًا إلى القلب. فالجملة الأدبية التي لا تعمّق البصيرة تصبح زينةً أخرى على حافة النص، والبلاغة التي تستوقف القارئ عند الكاتب وتحجبه عن الوحي قد أخطأت غايتها.

والمقصود أن تأخذ اللغة بيد القارئ حتى يقف أمام الآية، ثم تتراجع هي؛ لأن الكلمة البشرية ينبغي أن تعرف موضعها

أمام كلام الله. وعند حدود الجلال، لا تبقى للغة فضيلة أعلى من أن تصل إلى مقام السجود أمام المعنى.

لهذا سيجد القارئ في هذه الصفحات سردًا لا يفصل بين التاريخ والنفس، ولا بين العقيدة والأخلاق، ولا بين العبادة والعمران. فقصة شعيب ليست حديثًا عن السوق منفصلًا عن التوحيد، وقصة فرعون ليست سياسةً منفصلة عن الربوبية، وقصة أصحاب السبت ليست حيلةً فقهيةً منفصلة عن فساد القلب، وقصة العجل ليست وثنيةً قديمةً منفصلة عن أصنام الإنسان الحديثة.

إن السورة تعيد الأشياء كلها إلى مركز واحد: لمن تكون العبودية؟ ومن يملك الميزان؟ وبأي نور يقرأ الإنسان نفسه والعالم؟

هذا الكتاب إذن ليس بديلًا عن كتب التفسير، ولا دعوى لإحاطةٍ بالسورة التي لا تنقضي عجائبها؛ بل هو صحبة تدبرية تسير بمحاذاة آياتها، وتحاول أن تصغي إلى أسئلتها الكبرى: لماذا يعرف الإنسان ثم لا يسجد؟

كيف تتحول النعمة إلى استدراج، والمحنة إلى باب عودة؟

كيف يعيش الصنم داخل النفس بعد أن يُحطَّم في الخارج؟

لماذا يطلب المظلوم الحرية، ثم قد يحمل في باطنه صورةً من ظالمه؟

كيف ينفصل العلم عن الهداية؟

وكيف تستعيد النفس بصيرتها بعد أن يمسها طائف من الشيطان؟

وسنقرأ السورة لا باعتبارها مرآةً لوجوه السابقين وحدهم، بل باعتبارها مرآةً لنا. فليس التدبر أن نخرج من القصة ونحن نعرف لماذا هلكوا، بل أن نعرف أين يمكن أن يبدأ فينا الطريق الذي هلكوا فيه.

وحين نصل إلى خاتمة السورة، لن يكون السؤال: كم فصلًا قرأنا؟ بل: ماذا سقط من كبرنا؟ وأي صنم انكشف؟ وأي

بابٍ إلى التوبة انفتح؟ وهل صار القلب أقدر على الإنصات، والجبهة أشد شوقًا إلى السجود؟

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

رحلةٌ في أعماق النفس ومفترقات المصير

المدخل: حين يضع القرآن الإنسان أمام نفسه

تبدأ سورة الأعراف بحروفٍ مقطّعة: ﴿المص﴾

ثم لا تترك القلب طويلًا عند عتبة الدهشة، بل تدفعه مباشرةً إلى قلب الرسالة: ﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

كان يمكن أن تبدأ السورة بالحديث عن الأمم التي هلكت، أو عن آدم وإبليس، أو عن أصحاب الأعراف، لكنها بدأت بصدر حامل الرسالة. وكأن أول ميدان في معركة الحق ليس العالم الخارجي، بل صدر الداعية نفسه.

فالحق ثقيل، لا لأنه غامض، بل لأن الناس يقاومونه. والكلمة التي لا تتعرض لممانعة المجتمع قد لا تكون قد اقتربت بعدُ من مواضع المرض فيه. أما الوحي فإنه يدخل

إلى المناطق التي يحرص الباطل على إبقائها مغلقة؛ ولذلك يستقبله المستكبر بالخوف، وصاحب المصلحة بالعداء، والمقلّد بالإنكار، والغافل بالاستثقال.

﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾.

لم يقل: فلا يكن في عقلك شكّ منه؛ فالرسول ﷺ لم يكن شاكًّا في الوحي، ولكن الصدر قد يضيق بما يلقى صاحبه من تكذيبٍ وإعراضٍ وأذى. قد يكون الإنسان واثقًا من الحقيقة، ومع ذلك يتألم من وحشة الطريق إليها. وقد يكون ثابتًا على المبدأ، لكن كثرة الأصوات المناوئة تملأ صدره بثقلٍ لا يراه الناس.

وهنا تضع السورة قاعدةً مبكرة: **لا ينبغي أن تُقاس الحقيقة بمقدار ترحيب الناس بها.** فالحق لا يفقد شيئًا من حقانيته حين يرفضه جمهور، كما أن الباطل لا يكتسب شيئًا من الصواب حين تصفق له الجموع. إنما وظيفة حامل الرسالة أن يبلّغ؛ أما فتح القلوب فليس إليه.

ثم تنتقل الآيات من تثبيت الرسول ﷺ إلى مخاطبة الأمة كلها: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾.

هنا يُرسم أول مفترق في السورة: **الوحي أو الولاية المزاحمة له.**

فالإنسان لا يعيش بلا مرجعية. وإذا لم يتبع ما أنزل الله، فلن يصير حرًّا كما يتوهّم؛ بل سينتقل من ولاية الوحي إلى ولاية شيء آخر: هوى، أو زعيم، أو تقليد، أو جماعة، أو ثقافة غالبة، أو خوف من المجتمع، أو منفعة عاجلة. وكل خروجٍ من سلطان الحق ليس دخولًا في الحرية، بل انتقالٌ إلى عبوديةٍ أشد خفاءً.

وما أعمق قوله: ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

فالذي أنزل الكتاب ليس غريبًا عنكم، ولا متربصًا بإنسانيتكم، وإنما هو ربكم الذي خلقكم، وربّاكم بنعمه، ويعلم مسالك نفوسكم ومواطن ضعفكم. إن الأوامر القرآنية لا تأتي

من جهةٍ تنازع الإنسان وجوده؛ بل من ربّ يريد أن يخلّصه من القوى التي تسرق وجوده.

غير أن الإنسان كثيرًا ما يهرب من أمر ربه إلى أمر مخلوق مثله، ويستثقل تكليف الوحي ثم يحتمل في سبيل الناس ما لا يحتمله في سبيل الله. يخشى نظرة المجتمع أكثر مما يخشى سقوطه من عين الحق، ويراقب وجوه البشر ليعرف قيمته، كأن قلبه مرآة معلّقة في طرقات الناس؛ يتبدل شكله كلما مرّ به عابر.

ولهذا قالت الآية: ﴿قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾.

إن مشكلة الإنسان ليست دائمًا في فقدان المعرفة، بل في فقدان التذكّر. قد يعرف الحق، ثم يعيش كما لو أنه لم يعرفه. وقد يسمع الموعظة، ثم تبتلعها عاداته القديمة. وقد يدرك المصير، لكن سطوة الحاضر تحجبه عنه، فيصبح اليقين محفوظًا في الذهن، غائبًا عن القرار.

والقرآن لا يريد معرفةً باردةً تسكن الذاكرة؛ بل يريد حقيقةً حيةً تنزل إلى الإرادة، وتدخل في الاختيار، وتظهر عند المفترق.

ثم تفتح السورة نافذةً خاطفة على مصير القرى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾.

إنها صورة مرعبة في هدوئها. قرية نائمة في الليل، أو مسترخية في الظهيرة، والحياة تسير في ظاهرها بصورة مألوفة: أبواب مغلقة، وأجساد مطمئنة، وأحلام صغيرة ينسجها النائمون. ثم يأتي بأس الله، فتنهار فجأةً المسافة التي كان الوهم يقيمها بين الإنسان والجزاء.

اختارت الآية وقتين من أوقات الاسترخاء: البيات والقيلولة. وكأنها تقول إن الغفلة تبلغ ذروتها حين يشعر الإنسان أنه آمن تمامًا. فالخطر ليس دائمًا فيما نخافه؛ بل قد يكون في اللحظة التي نفقد فيها القدرة على الخوف.

لقد ظنت تلك القرى أن امتداد الزمن دليل سلامة، وأن تأخر العقوبة شهادة براءة. وما علمت أن الإمهال ليس إهمالًا، وأن التاريخ قد يبدو صامتًا طويلًا، لكنه حين ينطق ينطق بالحكم الأخير.

ثم يكشف القرآن عن الكلمة التي لا يقولها الظالمون إلا بعد فوات أوانها: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

ما أقسى المعرفة حين تأتي متأخرة!

لقد كانوا يملكون قبل العذاب آلاف الكلمات: يبررون، ويجادلون، ويسخرون، ويتهمون الرسل، ويعيدون تسمية الجرائم حتى تبدو فضائل. يسمّون الاستبداد حزمًا، والتقليد وفاءً، والجبن حكمةً، والطمع مصلحةً، والإعراض عن الوحي تقدّمًا. فلما جاء البأس احترقت الأسماء الزائفة كلها، ولم تبقَ إلا الحقيقة عاريةً: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

فالجزاء لا يكشف المصير وحده؛ بل يكشف حقيقة الماضي أيضًا. وعند انقشاع الغرور، يرى الإنسان أن كثيرًا مما دافع عنه لم يكن إلا ظلمًا يرتدي ثياب الحكمة.

ثم يرتفع المشهد من محاكمة القرى إلى المحاكمة الشاملة: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ۝ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾.

سيُسأل الذين جاءتهم الرسالة، وسيُسأل الذين حملوها. سؤالٌ للأمة: ماذا فعلتم بالحق؟ وسؤالٌ للرسل: كيف بلّغتموه؟

وهكذا لا تمنح السورة أحدًا منطقةً خارج المسؤولية. فالمتلقي مسؤول عن الاستجابة، وحامل العلم مسؤول عن البيان، وصاحب القدرة مسؤول عن استعمالها، وصاحب الكلمة مسؤول عن اتجاهها.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾

فهو يهدم أعمق أوهام المعصية: وهم الغياب.

الإنسان لا يجرؤ على كثير من خطاياه إلا حين يشعر، في غفلة قلبه، أنه بعيد عن الرقابة. يغلق بابًا، أو يخلو بنفسه، أو يختبئ خلف اسم، أو يمحو أثرًا، فيتوهم أن ما خرج من أعين الناس قد خرج من دائرة الحساب.

لكن الله لم يكن غائبًا عن لحظةٍ واحدة: لم يغب عن الخاطر حين تكوّن، ولا عن النية حين انعقدت، ولا عن الكلمة حين قيلت، ولا عن الجرح الذي أحدثته في قلبٍ لا يستطيع الدفاع عن نفسه. لم يغب عن ظلمٍ صفق له الناس، ولا عن دمعةٍ سقطت في غرفة مغلقة، ولا عن معروفٍ خفيّ لم يسمع به أحد.

وهذه الآية تجمع الهيبة والسكينة معًا. هي مخيفة للظالم؛ لأن الله لم يغب عن ظلمه. وهي مطمئنة للمظلوم؛ لأن الله لم يغب عن ألمه.

ثم تأتي الموازين: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾.

في الدنيا موازين كثيرة، وأكثرها مختلّ: يوزن الإنسان بماله، أو نسبه، أو منصبه، أو أتباعه، أو صوته العالي، أو قدرته على صناعة صورته. وقد يبدو الخفيف ثقيلًا لأن الإعلام يحمله، ويبدو الثقيل خفيفًا لأن الضجيج لا يعرف اسمه.

أما هناك فـ ﴿الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾.

لا دعاية، ولا ألقاب، ولا جمهور يصفق، ولا خصومة تحجب الفضيلة، ولا محبة عمياء تستر الجريمة. هناك تتحرر الأشياء من أسمائها التي منحها الناس لها، وتعود إلى حقائقها التي يعلمها الله.

والتعبير الأشد إيلامًا هو: ﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾.

لم يقل فقط: خسروا الجنة، أو خسروا النعيم، بل خسروا أنفسهم. فالإنسان حين يعصي الله لا يخسر شيئًا خارجيًا فحسب؛ إنه يهدم ذاته من الداخل، وينقص من إنسانيته، ويبدد الإمكان النبيل الذي أودعه الله فيه.

كل خطيئة غير متبوعة بتوبة تقتطع قطعةً من صفاء النفس. وكل استكبار يضيف إلى القلب جدارًا. وكل اتباعٍ للهوى يبعد الإنسان خطوةً عن نفسه التي كان يمكن أن يكونها.

إن أعظم الخسارات أن يصل المرء إلى النهاية، ثم يكتشف أنه أنفق عمره كله في صناعة شخصٍ لا يستحق النجاة.

بعد ذلك تذكّر السورة الإنسان بمكانه في الأرض: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾.

التمكين يسبق التكليف في الذكر؛ لأن الله لا يحاسب الإنسان على فراغ، بل على ما أعطاه. أعطاه أرضًا، وأسبابًا،

وعقلًا، وإرادةً، وقدرةً على البناء، ثم نظر كيف سيتصرف في هذا كله.

وهنا يظهر معنى بالغ الدقة: النعمة ليست راحةً محضة، بل مسؤولية مستترة. فكل ما أُعطيته قد صار سؤالًا مؤجلًا: العلم سؤال، والمال سؤال، والقوة سؤال، والوقت سؤال، والبيان سؤال، والقدرة على التأثير سؤال.

أما الشكر فليس كلمةً تقال عند امتلاء اليد؛ بل هو أن يعرف الإنسان الغاية الأخلاقية مما في يده. شكر العلم أن يهدي، وشكر القوة أن تحمي، وشكر المال أن يرحم، وشكر الكلمة أن تنصر الحقيقة، وشكر الحرية أن تُستعمل في طاعة الله لا في الهروب منه.

﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾.

لأن الإنسان يرى ما ينقصه أكثر مما يرى ما يحمله. ينظر طويلًا إلى الباب المغلق، وينسى النوافذ التي يدخل منها

الضوء. يحصي ما مُنع، ولا يحصي ما مُنح. فإذا اتسعت النعمة نسي المنعِم، وإذا ضاقت تذكّر السؤال عنه.

بهذه الآيات القليلة تهيئنا السورة للمشهد الأعظم: خلق الإنسان، وأمر الملائكة بالسجود، وتمرّد إبليس، وهبوط آدم إلى الأرض.

وسنرى أن أول معصية في هذا التاريخ لم تبدأ من الجهل بالله، بل من الكِبر على أمره؛ وأن إبليس لم يكن منكِرًا لوجود الله، ولكنه جعل معرفته عاجزةً عن إخضاع غروره. ومن هنا تبدأ المأساة التي تتكرر في كل عصر: أن يعرف الإنسان الحق، ثم يرفض أن ينحني له؛ لأن في داخله صنمًا اسمه **الأنا**.

الفصل الثاني

المعركة الأولى

حين تحوّلت «الأنا» إلى حجابٍ عن الحق

بعد أن ذكّرت السورة الإنسان بالتمكين في الأرض، أعادته إلى اللحظة الأولى التي تشكّل فيها وجوده: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾.

لم تبدأ قصة الإنسان على الأرض، بل بدأت قبلها؛ في مشهدٍ علويّ يكشف أن لهذا المخلوق شأنًا، وأن رحلته ليست حادثًا بلا معنى. خُلِق الإنسان وصُوّر، ثم أُكرم أبوه آدم بأمر الملائكة أن يسجدوا له سجود تحيةٍ وتكريم بأمر الله، لا سجود عبادة؛ فالعبادة لا تكون إلا لله.

سجد الملائكة جميعًا؛ لأن طهارة العبودية فيهم لم تترك موضعًا للاعتراض. تلقّوا الأمر من جهة الآمر، لا من جهة المأمور بالسجود له. لم يسألوا: ممَّ خُلق آدم؟ ولم يقارنوا

منزلته بمادتهم، ولم يروا في طاعته انتقاصًا من كرامتهم؛ لأن العابد الصادق يعلم أن كرامته ليست في الاعتراض على الله، بل في الامتثال له.

أما إبليس فوقف وحده خارج السجود.

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾.

وهنا ظهر أول انشقاقٍ أخلاقي في قصة الإنسان: جماعة سجدت لأن الله أمر، وفردٌ امتنع لأن ذاته اعترضت.

لم تكن المشكلة في جسده الذي لم ينحنِ فحسب، بل في المعنى الذي انتصب داخل نفسه. لقد أصبحت «الأنا» عنده مرجعيةً تنازع الأمر الإلهي؛ فلم يعد السؤال: ماذا يريد الله؟ بل: كيف أرى أنا الأمر؟ وما موقع ذاتي منه؟

وهكذا وُلد الكِبر: أن تتضخم الذات حتى تقف بين العبد وأمر ربه.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾.

﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾: هنا مركز القضية كلها.

لم يكن الأمر بحاجةٍ إلى اكتشاف حكمته حتى يصبح واجبًا؛ فكفاية الأمر مستمدة من جلال الآمر وحكمته وعلمه. لكن إبليس حوّل المسألة من مقام الطاعة إلى ساحة المقارنة. بدل أن ينظر إلى قول الله، نظر إلى مادته ومادة آدم.

قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾.

كانت هذه الجملة أقصر من أن تبدو فلسفة، لكنها احتوت أصلًا طويلًا من أصول الانحراف. فمنها خرج التعالي بالنسب، والعِرق، والمال، واللون، والجاه، والعلم، والانتماء. وكل من احتقر إنسانًا بسبب أصله أو صورته أو طبقته، ففي منطقه صدى بعيد من تلك العبارة القديمة: أنا خير منه.

والمتكبر لا يكتفي بحب نفسه؛ بل يحتاج إلى تصغير غيره حتى يحافظ على صورته المتضخمة. إنه لا يرى الفضل نعمةً تستوجب الشكر، بل منصّةً تتيح له النظر إلى الناس من علٍ.

قال إبليس: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾.

إنه قياس فاسد؛ لأنه ظن أن شرف الموجود محصور في مادته، وغفل عن سر الأمر الإلهي وعن الخصائص التي منحها الله لآدم. كما توهّم أن النار أفضل من الطين بإطلاق، ثم بنى على ذلك رفضه.

لكن الطين يحمل من المعاني ما لم يره غروره؛ ففيه السكون والإنبات والاحتواء. يوضع فيه الحبّ ميتًا فيخرجه ساقًا وثمرًا. أما النار إذا تُركت لطبيعتها فإنها تأكل ما حولها ثم تأكل نفسها.

والأخطر أن إبليس لم ينكر أن الله خلقه؛ قال: ﴿خَلَقْتَنِي﴾. لقد كانت عنده معرفة، لكنها لم تصنع عبودية. وآمن

بالخالق، لكنه لم يخضع لأمره. وعرف الحقيقة، لكن معرفته وقفت عند حدود الذهن ولم تنزل إلى مقام السجود.

وهنا تعلّمنا السورة أن المعرفة وحدها لا تنجي. فقد يحمل الإنسان في عقله أدلةً كثيرة، ويحفظ نصوصًا، ويجيد الكلام عن الله، ثم يكون في قلبه من التعاظم ما يحجبه عن الطاعة. ليست العبرة بأن تعرف الطريق، بل بأن تسير فيه؛ ولا بأن تتحدث عن الحق، بل بأن تسمح له أن يحكمك.

إن إبليس لم يسقط لقلة معلوماته، بل لفساد موقفه من المعلومة. كان يعلم، ولكنه أراد معرفةً لا تكسر كبرياءه؛ معرفةً تزين عقله ولا تغيّر قلبه.

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾.

أراد إبليس أن يرتفع، فكان جزاؤه الهبوط. طلب الكِبر، فانتهى إلى الصَّغار.

وهذه سنة أخلاقية لا تتبدل: من حاول أن يكبر بغير الحق صغر، ومن رفع نفسه فوق مقامها وضعه الله. وقد يمنح المتكبر صورةً عاليةً في أعين الناس، ولكن حقيقة روحه تكون في هبوط مستمر.

﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾.

فالجنّة دار الطهارة، والكِبر نجاسة باطنة. لا يليق بمقام القرب قلبٌ ينازع الله في أمره، ولا يسكن دار السلام من يحمل في داخله حربًا على الحق.

ولم يقل له: إنك من الكبار، بل قال: ﴿إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾. لأن الكبر خدعة بصرية تصنعها النفس لنفسها؛ يبدو صاحبها مرتفعًا، بينما هو يسقط في الداخل.

أما المتواضع لله فقد يبدو صغيرًا في موازين الناس، وهو عند الله عظيم. فالسجود الذي ظن إبليس أنه يُنقصه كان هو الطريق إلى رفعته، والامتناع الذي توهّم أنه يحفظ منزلته كان بداية سقوطه.

كم من إنسانٍ أهدر مقامه لأنه خشي أن يعتذر! وكم من عالمٍ أضاع علمه لأنه استثقل الرجوع إلى الحق! وكم من قائدٍ دمّر من حوله لأنه رأى التراجع عن الخطأ إهانةً لهيبته!

إن أعظم السقوط قد يبدأ من لحظة يرفض فيها الإنسان أن ينحني للحقيقة.

من الخطيئة إلى المشروع

كان يمكن لإبليس، بعد أن انكشف خطؤه، أن يندم. كان يمكن أن يقول: ربِّ ظلمت نفسي فاغفر لي. لكنه لم يفعل؛ لأن الكِبر لا يمنع الإنسان من الطاعة فقط، بل قد يمنعه من التوبة بعد المعصية.

﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾.

لم يسأل العودة، بل سأل المهلة. لم يطلب عمرًا إضافيًا ليصلح ما أفسد، بل ليعمّق الفساد.

وهنا تحولت الخطيئة الفردية إلى مشروع تاريخي. فالمعصية إذا لم تُعالج بالتوبة تبحث عن فلسفة تبررها، ثم عن آخرين يشاركون صاحبها فيها. فالمخطئ المتواضع يعود، أما المخطئ المتكبر فيحاول أن يجعل العالم كله نسخةً من خطئه؛ لأن انتشار الانحراف يخفف عنه شعور العزلة الأخلاقية.

يريد أن يقول لنفسه: لست وحدي. وما دام الجميع يفعلون ذلك، فلا بد أن الأمر ليس قبيحًا كما يبدو.

وهكذا لا يكتفي الباطل بأن يوجد؛ بل يريد أن يصير بيئةً عامة، وعادةً اجتماعية، وذوقًا مألوفًا، حتى يشعر المستقيم بالغربة ويشعر المنحرف بالاطمئنان.

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

لم يقل إبليس: بما عصيتُ، بل ألقى التبعة على غيره. وهذه علامة أخرى من علامات القلب الذي أغلقه الكِبر: يرفض تحمّل مسؤوليته.

آدم سيقول لاحقًا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾، أما إبليس فقال: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾.

بين الجملتين تتحدد وجهة المصير. كلاهما وقع في المخالفة، لكن آدم فتّش عن الخطأ في نفسه، وإبليس نسبه إلى غيره. آدم انكسر فارتفع، وإبليس تبرر فهبط. فالفرق بين وليٍّ لله وعدوٍّ له ليس أن الأول لا يخطئ، بل أن الخطأ يقوده إلى الاعتراف، بينما يقود الآخر إلى المكابرة.

ولم يقل إبليس: لأقعدن لهم في طرق المعاصي وحدها، بل قال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

إنه يعرف أين تكون المعركة. فالسائر بعيدًا عن الصراط لا يحتاج إلى من يقطعه عنه؛ وإنما يحتاج الشيطان إلى أن يعترض من بدأ يعود، ومن شرع يتقدم، ومن أراد أن يطهّر قلبه.

ولهذا قد تشتد الوساوس عند بداية التوبة، وتتكاثر العوائق حين يقرر الإنسان فعل الخير. فقبل القرار كان منساقًا، أما بعده فقد أصبح مشروع نجاة، ومشروع النجاة هو ما يستفز العدو.

والقعود يدل على الملازمة والترصّد. الشيطان لا يملّ من مراقبة منافذ النفس، ولا يقتحمها دائمًا بصوتٍ مخيف؛ بل قد يدخل إليها في هيئة ناصح، أو يزيّن التراجع باسم التوازن، والجبن باسم التعقل، والرياء باسم الدعوة، والكِبر باسم العزة، والبخل باسم التدبير.

إنه لا يهمه الاسم الذي يحمله الانحراف، ما دام يقود إلى النتيجة نفسها.

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾.

إنها صورة حصار نفسي شامل.

يأتي الإنسان من أمامه، فيشوّش عليه المستقبل: يخيفه من الفقر إن أنفق، ومن الوحدة إن استقام، ومن الخسارة إن تمسك بالمبدأ. ويأتيه من خلفه، فيربطه بماضيه: بعادات الآباء، أو بأخطاء لا يريد أن يغفرها لنفسه، أو بذكريات تحبسه فيما كان.

ويأتيه عن يمينه، فيدخل عليه من أبواب الخير؛ فيفسد الطاعة بالعجب، والعلم بالغرور، والدعوة بحب الظهور. ويأتيه عن شماله، فيفتح أبواب الشهوة والمعصية واليأس.

إنه يحاصر الإنسان في الزمن والاتجاه والنفس؛ لكنه لا يملك أن يجبره. يوسوس ويزيّن ويعد ويخوّف، أما القرار الأخير فيبقى للإنسان. وهنا تقوم المسؤولية؛ إذ لو كان الشيطان يملك الإكراه لما صحّ الحساب.

والعجيب أنه قال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾.

كأن معركته الكبرى ليست على مجرد الأفعال، بل على الشكر. ذلك أن الشكر رؤية: أن ترى النعمة، والمنعم، والغاية من العطاء. فإذا أفسد الشيطان هذه الرؤية، صار الإنسان ساخطًا وسط النعم، فقيرًا وسط الوفرة، خائفًا مع الكفاية، متطلعًا إلى ما في أيدي الناس، غافلًا عما في يده.

والشاكر عصيّ على الإغواء؛ لأنه مشغول بالله لا بما فاته، وممتلئ بما أُعطي لا بما مُنع. أما الساخط ففي قلبه شقوق كثيرة، يدخل الشيطان منها بسهولة.

﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

هنا تكشف الآية حقيقة سلطان الشيطان: إنه لا يسوق الناس قهرًا، وإنما يتبعونه اختيارًا.

﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾.

فالشيطان يفتح الباب، لكن الإنسان هو الذي يمشي. يزيّن الطريق، لكن القدم البشرية هي التي تختاره. ولهذا لا يستطيع أحد يوم القيامة أن يجعل إبليس شماعةً يعلّق عليها قراراته؛ فقد كان له عقل، ووحي، وفطرة، وإنذارات، وفرص متكررة للعودة.

إن الخطر ليس في وجود الشيطان خارجنا فحسب، بل في وجود مواضع داخليّة تستجيب له: كِبر يتفاهم مع كبره، وحسد يلتقط إشارته، وشهوة تصدّق وعده، وخوف يثق بتهديده.

ومن هنا فإن مقاومة الشيطان لا تكون بالصخب، وإنما بتطهير منافذه: تواضع يردّ الكبر، ورضا يطفئ الحسد، ويقين يهزم الخوف، وتوبة تغلق الطريق بعد الزلّة.

ثم ينتقل الخطاب إلى آدم: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

كان المباح واسعًا، والمحظور واحدًا. ﴿مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أمامها ﴿هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾.

لكن النفس إذا تعلّقت بالممنوع ضاق في عينها فضاء المباح كله، ولم تعد ترى إلا الشجرة. وهذه من حيل الشيطان القديمة: أن يحجب عنك آلاف النعم بشيءٍ واحد لم يُؤذن لك فيه.

لم يكن الامتحان في قلة العطاء؛ فقد كانت الجنة واسعة. كان الامتحان في القدرة على الوقوف عند الحد. فالحرية ليست أن تفعل كل ما تشتهي، بل أن تملك نفسك حين تشتهي ما لا ينبغي.

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾، ولم يقل فقط: لا تأكلا؛ لأن بعض المحرمات لها مناطق جذب، ومن الحكمة ألا يقف

الإنسان طويلًا عند حافتها. فالذي يثق بنفسه أكثر مما ينبغي قد يقترب ليتأمل، ثم يتأمل ليجرب، ثم يجرب ليعتاد، ثم يبحث بعد ذلك عن اسمٍ أخفّ لما فعل.

إن كثيرًا من السقوط لا يحدث بقفزة واحدة، بل بخطواتٍ صغيرة كانت كل واحدة منها تبدو آمنة.

وهنا يبدأ الشيطان أول عملية تزوير للوعي الإنساني: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾.

لم يقل لهما: اعصيا الله؛ فالمعصية حين تُعرض باسمها الصريح تنفر منها الفطرة. لكنه أعاد تفسير النهي: زعم أن وراءه حرمانًا من مقام أعلى وخلود أطول.

حوّل الحماية إلى حرمان، والحدّ الرحيم إلى مؤامرة على الطموح.

وهذه هي الوسوسة في جوهرها: ألا تغيّر الأشياء، بل تغيّر أسماءها في النفس. فإذا تغيّر الاسم، هان الفعل. يصبح التفلّت حرية، والجشع طموحًا، والتعري تحررًا، والخيانة بحثًا عن الذات، والسكوت عن الظلم حكمة.

إن الشيطان لغويّ ماكر؛ يبدأ بتخريب قاموس الإنسان قبل أن يخرّب سلوكه.

ثم أضاف إلى التضليل قَسمًا: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾.

لبس العدو ثياب الناصح. فليس كل من أظهر الحرص يريد لك الخير، وليس كل خطاب ناعم بريئًا. وقد يكون السمّ أكثر قدرة على الدخول حين يوضع في كأسٍ جميلة.

وهكذا تعلّمنا السورة أن الباطل لا يأتي دائمًا بوجهه الحقيقي؛ لأنه لو جاء عاريًا لما اتبعه كثيرون. إنه يحتاج إلى قناع أخلاقي، وشعار جذاب، ووعدٍ يلامس رغبةً خفية في النفس.

وفي قلب كل فتنة تقريبًا أمنيةٌ لم تُضبط: رغبة في الخلود، أو التفوق، أو الظهور، أو التملك، أو الهروب من حدود البشرية.

ولهذا لا يكفي أن تعرف عدوك؛ بل ينبغي أن تعرف الموضع الذي يمكن أن يخاطبه العدو فيك. فكل إنسان يحمل شجرةً ما تلمع في عينيه، ويحاول الشيطان أن يقنعه بأن سعادته كلها معلقة بثمرةٍ واحدة وراء حدود الله.

الفصل الثالث

من انكشاف السَّوْأة إلى انفتاح باب التوبة

يبلغ المشهد ذروته في قوله تعالى: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾.

في التعبير حركة نزول بطيئة. لم يدفعهما دفعةً واحدة، بل أنزلهما درجةً بعد درجة؛ من سماع الوسوسة، إلى التأمل في الوعد، إلى تصديق الناصح الكاذب، إلى الاقتراب، ثم الذوق.

وهكذا يعمل الغرور: لا يطلب من الإنسان أول الأمر أن يهدم نفسه، بل يقنعه بخطوة تبدو صغيرة. ثم تصبح الخطوة موطئًا لأخرى، حتى يجد المرء نفسه في موضعٍ لم يكن يتصور أنه سيبلغه.

الخطيئة الكبيرة كثيرًا ما تكون آخر السلسلة، لا أولها. تبدأ بتساهل في الخاطر، ثم باستضافة الفكرة، ثم بالتردد عليها، ثم بتزيينها، ثم بالبحث عن مسوّغ، ثم يقع الفعل وكأنه النتيجة الطبيعية لطريقٍ جرى تمهيده في الخفاء.

ولذلك فإن النجاة لا تبدأ عند لحظة الفعل وحدها؛ بل عند حراسة المداخل الأولى.

﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾.

كان الوعد بالارتفاع، فجاءت النتيجة انكشافًا. كان الشيطان يعدهما بمقام الملك والخلود، فإذا بالثمرة لا تضيف إليهما جناحين، بل تسلبهما سترًا.

هذه طبيعة المعصية: تعد الإنسان بأن تزيده، ثم تنقصه. تعده بالحرية فتستعبده، وباللذة فتورثه الوحشة، وبالعزة فتترك في قلبه ذلًّا، وبالامتلاء فتوقظ فيه جوعًا أشد.

ما من معصية إلا ولها واجهة لامعة وخلفية مظلمة. يريك الشيطان لحظة الاقتراب، ولا يريك صباح الندم. يريك الثمرة، ولا يريك انكشاف السوأة. يريك نشوة البداية، ويحجب عنك مرارة النهاية.

ولذلك كانت البصيرة الإيمانية قدرةً على رؤية العاقبة وهي لا تزال مستترة في المقدمة. أن ترى في اللقمة المحرمة جوعًا قادمًا، وفي النظرة الممنوعة ظلمةً تتسلل إلى القلب، وفي الظلم حفرةً يحفرها الظالم لنفسه، وإن بدا وقتًا واقفًا على حافتها آمنًا.

﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾.

ما إن بدت السوأة حتى تحرك فيهما الحياء. وهذا مهم في فهم طبيعة الإنسان؛ فالحياء ليس قيدًا اجتماعيًا طارئًا صنعته المجتمعات، بل شعور عميق متصل بالفطرة. كان الستر استجابة الإنسان الأولى لانكشاف جسده، قبل أن توجد أعراف الأرض وأزياؤها وثقافاتها.

لم يحتفيا بانكشافهما، ولم يسمّياه تحررًا، بل أسرعا إلى الستر.

ومن هنا نفهم لماذا يحاول الفساد دائمًا أن يبدأ بتخدير الحياء. فالحياء حارس داخلي، إذا بقي حيًّا قاومت النفس انكشافها، وإذا مات صار القبيح عاديًا، ثم صار العادي مطلوبًا، ثم أصبح إنكار القبيح هو الفعل المستنكر.

إن انتقال المجتمع من الطهر إلى الانحلال لا يبدأ غالبًا بتغيّر الأفعال وحدها، بل بتغيّر الإحساس بها. فإذا بقي الفعل نفسه وسقط الخجل منه، فقد سقط أحد آخر الأسوار.

غير أن ورق الجنة لم يكن قادرًا على محو أثر المخالفة؛ كان يستر الجسد، ولا يزيل الذنب. فالإنسان يستطيع أن يخفي نتائج خطيئته عن الناس، وأن يرمم صورته الخارجية، لكنه لا يستعيد طهارته الداخلية إلا بالتوبة.

كم من أوراقٍ نخصفها اليوم على عيوبنا: الأعذار، والصور المصنوعة، والكلمات المنمّقة، وإلقاء المسؤولية على الآخرين. كلها قد تستر المشهد، لكنها لا تشفي القلب.

القلب لا يحتاج إلى ورقة تغطيه، بل إلى مغفرة تطهّره.

﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾.

ما أرقّ التعبير في موضع العتاب!

لم يقل: وناداهما خالقهما، مع أن المعنى حق؛ بل قال: ﴿رَبُّهُمَا﴾. فالربوبية لم تنقطع بالزلّة، والرعاية لم تُسحب منهما، وباب العودة لم يُغلق.

لقد عصيا، لكنهما لم يخرجا عن تدبير الله ورحمته. وجاء النداء ليوقظهما، لا ليتركهما في متاهة الذنب.

﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

لم يكن النهي غامضًا، ولا العدو مجهولًا، لكن لحظة الفتنة تجعل الإنسان يتصرف أحيانًا كأنه يسمع الحقيقة للمرة الأولى بعد أن يقع. قبل الخطيئة يبدو التحذير بعيدًا، وبعدها يستعيد كل كلمة قيلت له، ويرى كم كانت واضحة.

وذلك من أشد ألوان الحسرة: أن تدرك أن النور كان موجودًا، ولكنك أغمضت عينيك عنه.

الكلمة التي أنقذت الإنسان

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

هنا يبدأ الفرق الحاسم بين الإنسان والشيطان.

إبليس عصى، وآدم عصى. لكن إبليس قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾، وآدم قال: ﴿ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾. إبليس دافع عن ذاته، وآدم حاكم

ذاته. إبليس بحث عن مبرر، وآدم بحث عن مغفرة. إبليس جعل خطيئته رايةً، وآدم جعل خطيئته باب انكسار.

لم يقل آدم: أغوانا الشيطان، مع أن الشيطان وسوس لهما. ولم يقل: كانت الشجرة جذابة، ولا: كانت التجربة جديدة، ولا: إننا لم نرد المعصية. لقد تجاوز كل الملابسات وأمسك بجوهر المسألة: ﴿ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾.

الاعتراف الصادق لا يعني أن يجهل الإنسان الظروف التي أحاطت به، بل ألا يجعلها بديلًا عن مسؤوليته. وقد تكون هناك ضغوط، ووساوس، ومغريات، وأسباب، لكن القرار الذي صدر منك يحتاج إلى شجاعة الاعتراف: أنا فعلت.

وهذه الشجاعة ليست إذلالًا للنفس، بل بداية استعادتها. فالإنسان لا يتعافى من الخطأ الذي يصرّ على تسميته صوابًا، ولا يخرج من الحفرة ما دام يشرح للناس مزايا البقاء فيها.

﴿رَبَّنَا﴾.

بدأ الدعاء بالربوبية؛ لأنها باب الرجاء. كأنهما يقولان: يا من ربيتَنا بنعمتك، لا تتركنا لأثر معصيتنا. يا من أوجدتنا من العدم، أعد إنشاء قلوبنا بعد أن أفسدها الذنب.

ثم قالا: ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

جمعا بين المغفرة والرحمة؛ لأن النجاة لا تتم بمجرد محو الماضي، بل تحتاج إلى لطفٍ يحمل الإنسان في المستقبل. المغفرة تستر الذنب وتزيل أثره، والرحمة تمدّ العبد بما يصلح به بقية الطريق.

إن التائب لا يقول فقط: يا رب امحُ ما فعلت، بل يقول أيضًا: يا رب لا تكلني إلى نفسي مرةً أخرى.

وهنا يكشف الدعاء عن معرفة عميقة بحقيقة الإنسان: ليس لنا نجاة نستقل بها عن الله. أعمالنا لا تستغني عن قبوله،

وإرادتنا لا تثبت من دون توفيقه، وقلوبنا لا تطهر إلا برحمته.

فالعبد لا يأتي إلى الله مزهوًّا بأنه أصلح نفسه، بل منكسرًا لأنه لا يصلحها إلا الله.

التوبة إذن ليست مجرد كلمات اعتذار، بل انقلاب كامل في اتجاه النفس:

كان نظرها إلى الشجرة، فأصبح إلى الله.

كانت منشغلة بما مُنعت، فأصبحت منشغلة بما فقدت من صفائها.

كانت تصغي إلى وعد الشيطان، فأصبحت تسمع نداء الرب.

كانت تحاول ستر السوأة بالورق، فأصبحت تطلب ستر الذنب بالمغفرة.

وهكذا قد تكون الخطيئة ـ إذا أورثت توبة صادقة ـ بداية معرفةٍ بالنفس لم تكن موجودة قبلها. ليس لأن الخطيئة خير،

بل لأن رحمة الله قادرة على انتشال العبد من شرّها، ثم تعليمه من انكساره ما لم يتعلمه من سلامته.

قد يدخل الإنسان الطاعة وهو يرى نفسه، ثم تزل قدمه فيكتشف فقره، فيعود إلى الله بقلبٍ أصدق. وقد تكون طاعةٌ أورثت عجبًا أخطر على القلب من زلة أورثت انكسارًا وتوبة. فلا العبرة بصورة البداية، بل بما تصير إليه القلوب.

غير أن هذا لا يفتح باب التهاون بالذنب؛ فليس كل عاصٍ يتوب، ولا كل جرح يلتئم. لكنه يفتح باب الرجاء لمن وقع: لا تجعل الشيطان ينتصر عليك مرتين؛ مرةً حين أغراك بالمعصية، ومرةً حين أقنعك أن العودة مستحيلة.

الأرض: دار المعركة لا دار الإقامة

﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ۝ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾.

بدأت الرحلة الأرضية بعد انكشاف العداوة. لم يهبط الإنسان إلى عالمٍ محايد، بل إلى ساحة امتحان تجري فيها خصومة بين طريقين، ووعدين، وصوتين: وعد الله ووعد الشيطان، نداء الروح واندفاع الشهوة، ذاكرة الجنة وإغراء الشجرة.

﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾، لكنه ليس استقرارًا أبديًا؛ فقد قيّدته الآية بقوله: ﴿إِلَى حِينٍ﴾.

كل ما في الأرض مؤقت، وإن طال. البيوت التي نظن أننا نسكنها طويلًا ليست إلا محطات، والأجساد نفسها مساكن مؤقتة للروح. وكل ما نملكه يحمل في داخله موعد افتراقه عنا، أو افتراقنا عنه.

﴿وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾.

لم ينف القرآن المتاع، لكنه حدّد مدته. والمشكلة ليست أن يتمتع الإنسان بما أحل الله، بل أن ينسى كلمة ﴿إِلَى حِينٍ﴾. فعندما تُنسى النهاية يتحول المتاع إلى معبود، وتصبح الوسيلة غايةً، ويستهلك الإنسان عمره في تأثيث محطة سيغادرها.

الدنيا لا تخدعنا لأنها بلا جمال، بل لأنها جميلة بما يكفي لأن توهم الغافل أنها النهاية. فيها ما يملأ العين، لكنه لا يملأ الروح؛ وما يسكّن الحاجة زمنًا، لكنه لا يمنح الخلود.

ولهذا ظلّ في أعماق الإنسان حنين لا تفسره أشياء الأرض. كلما بلغ غايةً ظهرت وراءها مسافة أخرى. وكلما امتلك شيئًا تسرّب منه الاكتفاء. كأن في روحه ذاكرةً بعيدةً عن وطنه الأول؛ فلا تستقر تمامًا في عالمٍ كُتب عليه الفناء.

﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾.

ثلاث حركات تختصر التاريخ الإنساني: حياة، وموت، وخروج.

الحياة ليست الحلقة كلها، والموت ليس النهاية، والأرض التي تستقبل الأجساد ستعيدها يومًا إلى مشهد الحساب.

﴿وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾.

إنه خروج لا يملك أحد تأجيله، كما لم يملك أحد أصل دخوله إلى الحياة. سيخرج الملوك بلا عروشهم، والأغنياء بلا خزائنهم، والمشهورون بلا جمهورهم. وسيقف الإنسان بما صار إليه قلبه، لا بما راكمته يداه.

وهكذا تغرس السورة منذ أولها مركزية الآخرة في الوعي؛ لأن الإنسان إذا نسي البعث قرأ الحياة قراءةً مبتورة. يرى الظالم قد نجا، والمظلوم قد ضاع، والطيب قد خسر، والمفسد قد ربح؛ لأنه أغلق الكتاب قبل الصفحة الأخيرة.

أما المؤمن فيعلم أن المشهد لم ينتهِ، وأن الموت ليس إسدال الستار، بل رفعه عن الحقيقة الكاملة.

يا بني آدم: الستر الظاهر والستر الباطن

بعد قصة الأبوين، يتجه الخطاب إلى الأبناء: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

لم يقل: يا أيها الناس فحسب، بل ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾؛ ليعيد كل إنسان إلى القصة الأولى. كأن النداء يقول: تذكّروا أباكم، وتذكّروا كيف بدأت محاولة الشيطان بكشف السوءات، فلا تسلّموا له ما حاول انتزاعه منذ البداية.

اللباس نعمةٌ تتجاوز تغطية الجسد؛ إنه علامة كرامة. يواري السوءة، ثم يكون ﴿رِيشًا﴾، أي زينةً وجمالًا.

فالإسلام لا يعادي الجمال، لكنه يضعه داخل سياج الكرامة. يريد للإنسان أن يتجمّل من غير أن يبتذل نفسه، وأن يعتني بمظهره من غير أن يجعل جسده سلعةً تستجدي العيون.

ثم تنتقل الآية من لباس الجسد إلى لباس الروح: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾.

فكما أن للجسد سوءةً يكشفها سقوط الثوب، فللروح سوءات يكشفها سقوط التقوى. قد يكون الإنسان أنيق الظاهر، مكشوف الباطن: تبدو عليه أبهى الثياب، بينما يظهر من روحه الحسد، والكذب، والغدر، والرياء.

ولباس التقوى ليس مظهرًا دينيًا يُرتدى أمام الناس، بل رقابة داخلية تكسو النفس حين تخلو، وتمنعها أن تنكشف أخلاقيًا ولو غابت عنها العيون.

الثوب يستر ما يراه الناس، والتقوى تستر ما يراه الله منا فلا نأتيه.

وما أكثر من يعتني بمرآة وجهه ولا يملك مرآةً لقلبه؛ يسارع إلى إصلاح خلل صغير في هندامه، ويترك كِبرًا يمزق روحه، أو حسدًا يشوّه باطنه، أو خصومةً تفسد ميزانه.

إن الأجمل ليس من لبس أثمن الثياب، بل من سترت التقوى عيوب نفسه، حتى صار حضوره رحمةً لا أذى.

ثم يأتي التحذير: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾.

التاريخ هنا ليس حكايةً للماضي، بل تحذير للحاضر. فما فعله الشيطان مع الأبوين يحاول أن يكرره مع الأبناء: الوعد نفسه، والتزيين نفسه، وتغيير أسماء الأشياء نفسه، ثم النتيجة نفسها؛ انكشاف بعد ستر، وندم بعد اغترار.

لكن الشيطان اكتسب عبر التاريخ أقنعةً أكثر. فقد لا يقول للإنسان: اخلع لباسك، بل يقنعه أن الستر تخلّف، وأن الحياء ضعف، وأن الحدود تضييق، وأن القيمة فيما يجتذبه الجسد من أنظار.

ويظل هدفه العميق واحدًا: أن ينزع عن الإنسان لباس كرامته قبل لباس جسده.

﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾.

المعركة غير متكافئة من جهة الرؤية؛ هو يرانا ونحن لا نراه. لكن الله لم يترك الإنسان أعزل؛ أعطاه الوحي، والعقل، والفطرة، والذكر، والاستعاذة، والتوبة. وما فقده الإنسان من رؤية العدو عوّضه الله بمعرفة منهجه ومداخله.

لسنا بحاجة إلى أن نرى الشيطان حتى نعرف أثره؛ يكفي أن نرى الفكرة التي تزيّن القبيح، والوعد الذي يهوّن العاقبة، والصوت الذي يدفع إلى اليأس بعد المعصية، أو إلى الغرور بعد الطاعة.

ثم تختم الآية: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

فلا يصبح الشيطان وليًّا للإنسان بقوةٍ مستقلة يملكها، بل بسبب الباب الذي يفتحه الإنسان له بالإعراض عن الإيمان.

حين يطفئ القلب مصباح الوحي، لا يبقى فارغًا؛ تدخل إليه ظلمات أخرى.

وهنا يتضح قانون السورة من جديد: الإنسان كائن يختار الولاية. إما أن يتولى اللهَ بطاعته، وإما أن يفتح قلبه لولاية تقوده بعيدًا عنه.

وبين الولايتين تُكتب سيرة الإنسان، ويتشكل مصيره.

الفصل الرابع

حين يرتدي الباطل ثياب الآباء

بعد أن حذّرت السورة بني آدم من فتنة الشيطان، كشفت عن واحد من أخطر مداخله: أن يحوّل العادة الموروثة إلى حُجّة، وأن يجعل قِدَم الخطأ دليلًا على صحته.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

كان أهل الجاهلية يطوف بعضهم بالبيت عراةً، ويزعمون أن ذلك من الدين الذي تلقّوه عن آبائهم. وهكذا بلغ التزييف مداه: فاحشةٌ تُرتكب في جوار البيت، ثم تُنسب إلى رب البيت!

لكن هذا الانحراف ليس حادثةً تاريخية انتهت، بل نموذج يتكرر. فالإنسان إذا أحب فعلًا ولم يجد له حجةً من الحق، بحث له عن غطاء من الموروث، أو المجتمع، أو الدين، أو

الضرورة. وهو لا يكتفي بأن يخطئ؛ بل يريد أن يحمي خطأه من التأنيب بإضفاء شرعيةٍ عليه.

قالوا: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾.

وهذه حجة الكسل العقلي: أن يرث الإنسان الفكرة كما يرث الاسم والبيت، فلا يسأل عن أصلها ولا يزنها بميزان الوحي. يصبح الماضي عنده معصومًا لا يُراجع، ويغدو عمر العادة دليلًا على سلامتها.

لكن الحق لا يُقاس بعمر الفكرة، بل بمصدرها وبرهانها. فكم من خطأ عاش قرونًا، وكم من حقيقة حوربت يوم وُلدت! والزمن لا يحوّل الباطل حقًّا؛ إنما يكسوه غبار الألفة، حتى يصعب على الناس أن يروه على حقيقته.

والآباء أنفسهم لم يكونوا كتلةً مقدسة، بل بشرًا يصيبون ويخطئون. والوفاء لهم لا يكون بوراثة عثراتهم، بل بإنقاذ ما يمكن إنقاذه من مصيرها.

ثم قالوا: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾.

وهذا أغلظ من الفعل نفسه؛ لأنهم لم يكتفوا بالفاحشة، بل افتروا على الله. فالخطيئة إذا بقيت خطيئةً في وعي صاحبها ظل باب التوبة مفتوحًا أمامه، أما إذا جعلها دينًا فقد أقام حولها سورًا من القداسة الكاذبة.

ولذلك جاء الرد حاسمًا: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾.

إن معرفة صفات الله وأصول شرعه تحمي الإنسان من الكذب عليه. فالله تعالى منزّه عن أن يأمر بالقبيح؛ وأمره قائم على الحق والعدل والطهارة والحكمة.

ثم يأتي السؤال الكاشف: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

الكلام عن الله ليس ساحةً للظنون الرخوة. وكل من نسب إليه حكمًا، أو حرّم ما لم يحرّم، أو أوجب ما لم يوجب، فقد دخل مقامًا عظيمًا يحتاج إلى بيّنة. ليس الخطر فقط أن يقول المرء كلامًا خطأ، بل أن يمنح خطأه سلطان اسم الله.

كم من تضييق على الناس نُسب إلى الدين والدين منه بريء! وكم من عادةٍ اجتماعية رُفعت إلى مقام التشريع! وكم من رغبة بشرية لبست عباءة المقدس، حتى صار الاعتراض عليها عند أصحابها اعتراضًا على الله!

إن القرآن يحرر الدين من استيلاء البشر عليه؛ فلا يحق لأحد أن يجعل ذوقه شريعة، ولا مزاجه ميزانًا للتقوى، ولا موروثه وحيًا ثانيًا.

القسط: استقامة الظاهر والباطن

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾.

بعد أن نفى عن الله الأمر بالفحشاء، بيّن ما يأمر به حقيقةً: ﴿أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾.

القسط ليس خُلُقًا جانبيًا في الدين، بل محورٌ يقوم عليه. هو أن يوضع كل شيء في موضعه، وأن يُعطى كل ذي حق

حقه، وأن يتحرر الحكم من ضغط الحب والبغض، والقرب والبعد، والمنفعة والخصومة.

قد يصلّي الإنسان كثيرًا، لكنه إذا ظلم عند الخصومة فقد انكشف خلل عميق في عبادته. وقد يتحدث عن الحق، لكنه إذا استثنى نفسه وجماعته من ميزانه لم يكن متبعًا للحق، بل مستخدمًا له.

القسط أن تكون الحقيقة أحبّ إليك من انتصار رأيك، والعدل أحبّ إليك من غلبة فريقك. أن تعترف بفضل خصمك، كما تعترف بخطأ صديقك، فلا تجعل الولاء ستارًا للباطل، ولا تجعل الخصومة ممحاةً للحسنات.

وأشقّ العدل ليس العدل بين الغرباء؛ بل العدل حين يجرح مصلحتك، أو يخالف هواك، أو يُنصف شخصًا لا تحبه.

﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.

إقامة الوجه أعمق من توجيه الجسد؛ إنها إقامة القصد كله لله. فكم من جسد اتجه إلى القبلة، بينما اتجه القلب إلى الناس! وكم من عبادة بدت لله في ظاهرها، لكن في باطنها عينًا تراقب إعجاب البشر!

الوجه عنوان الاتجاه. وحين يأمر الله بإقامته، فكأنه يأمر الإنسان أن يوحّد قبلته الداخلية: ألا يكون له وجهٌ لله في المسجد، ووجهٌ للهوى خارجه؛ ولا ضميرٌ في العبادة وضميرٌ آخر عند المال والسلطة والخصومة.

الدين ليس لحظةً معزولة في المسجد، بل اتجاهٌ ينتظم الحياة كلها. ومن أقام وجهه لله هناك، وجب أن يقيم ميزانه لله في السوق، ولسانه لله في المجالس، وقلمه لله عند الكتابة، وموقفه لله عند الفتنة.

﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

الإخلاص تحرير العمل من الشركاء الخفيين. فقد يؤدي الإنسان العمل نفسه، لكن قلبه موزع بين الله وبين نظر الناس، وثنائهم، ومكانته عندهم.

والرياء لا يغيّر صورة العمل دائمًا؛ بل يغيّر وجهته. قد تبقى الصلاة صلاةً في أعين الناس، وتصبح في الداخل رسالةً موجهةً إليهم. وقد تكون الكلمة حقًّا، لكن قائلها يريد بها أن يُرى هو، لا أن يُرى الحق.

الإخلاص ألا تستعمل الدين لبناء تمثال نفسك.

هو أن تفرح بظهور الحقيقة ولو لم يُذكر اسمك، وأن تنجح الدعوة ولو نُسي جهدك، وأن يُقبل الخير على يد غيرك فلا يضيق صدرك. فمن كان مقصده الله، لم ينافس الناس على أبواب الله؛ لأنه لا يرى نفسه مالكًا للحق، بل خادمًا له.

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾.

تختصر الآية المسافة كلها: بداية من الله، وعودة إليه. خرج الإنسان إلى الحياة بلا مال ولا اسم ولا منصب، وسيعود مجردًا من كل ما التصق به في الطريق.

إننا بين قبضتين من قدرة الله: خلقٍ أول وبعثٍ آخر. وبينهما مُنحنا فسحةً قصيرة اسمها العمر، لنكشف باختيارنا مَن نكون.

﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

وأشد الضلال خطرًا ليس ضلال من يعرف أنه تائه، بل ضلال من يظن أنه وصل. فالتائه الذي يشعر بتيهه يبحث عن الطريق، أما من يرى انحرافه هدايةً فقد عطّل في نفسه الحاجة إلى المراجعة.

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

قد يجتهد الإنسان في السير، لكنه يسير في الاتجاه الخطأ. وقد يضحي ويصبر، ولكن في خدمة باطل. فليست الحماسة دليلًا على سلامة الطريق، ولا كثرة الأتباع شهادةً من الله، ولا الثقة العالية بالنفس بديلًا عن البرهان.

إن القلب يحتاج دائمًا إلى أن يقف أمام الوحي ليسأله: هل أنا على الطريق حقًا، أم أنني أحببت الطريق الذي أنا عليه فسمّيته حقًّا؟

الزينة التي حرّمها المتنطعون

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾.

ما أجمل هذا التوازن!

في مواجهة التعري الجاهلي يأمر القرآن بالزينة، وفي مواجهة الانغماس يأمر بعدم الإسراف. فلا رهبانية تحارب الجمال، ولا شهوانية تلتهم الحدود.

﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾.

الوقوف بين يدي الله ليس إهمالًا للجسد، بل تكريم له. فالمؤمن يتجمل للصلاة؛ لأن الظاهر والباطن يلتقيان في مقام العبادة: لباس نظيف، وقلب يريد أن يتطهر.

ثم قال: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾.

لم يجعل الدين الجوع غايةً، ولا حرمان النفس فضيلةً بذاته. فالطيبات من رزق الله، والأكل والشرب نعمتان، والجسد أمانة يحتاج إلى حقه.

لكن الحرية لم تُترك بلا ميزان: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾.

الإسراف هو أن تتجاوز النعمة غايتها، فتتحول من وسيلة للحياة إلى شيء تستهلك الحياة في طلبه. يأكل الإنسان

ليعيش، ثم قد ينقلب الميزان فيعيش ليأكل. ويملك الأشياء لتخدمه، ثم تتكاثر حتى يصبح خادمًا لها.

والإسراف لا يكون في الطعام وحده؛ بل في الكلام، والخصومة، والمدح، والذم، والحزن، والفرح، والإنفاق، وحتى في الانشغال بالمباح. كل شيء تجاوز قدره انقلب على غايته.

إن النفس التي لا تتعلم الاكتفاء ستظل فقيرةً مهما اتسعت ممتلكاتها. فالجوع المادي تشبعه لقمة، أما جوع الروح إذا تعلق بالدنيا فلا تشبعه خزائن الأرض.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾.

السؤال يحمل إنكارًا على أولئك الذين يتقربون إلى الله بتضييق ما وسّعه، وكأنهم أرحم بالدين من منزّل الدين.

﴿زِينَةَ اللَّهِ﴾: إضافتها إلى الله تردّ الجمال إلى مصدره. فالجمال ليس خصمًا للإيمان، بل أثر من آثار نعمة الله في خلقه. المشكلة ليست في الثوب الجميل، بل في الكبر الذي قد يسكن تحته؛ ولا في الطعام الطيب، بل في الإسراف والغفلة وحقوق الفقراء المنسية.

إن الزهد ليس أن ترفض النعمة، بل ألا تملك النعمة قلبك. قد يكون الإنسان قليل المال شديد التعلق بالدنيا، وقد يكون واسع الرزق حرّ القلب منها، يستعملها ولا تعبده.

ثم تقول الآية: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

للمؤمن نصيب من الجمال في الدنيا، لكنه في الآخرة جمال صافٍ لا تكدره نهاية، ولا يفسده خوف الزوال. أما كل متاع الدنيا فتختلط به منغصاته؛ صحة يهددها المرض، واجتماع يطارده الفراق، ولذة يقطعها الانتهاء.

هناك وحدها تنفصل النعمة عن ظلها الثقيل: الفناء.

المحرمات الحقيقية

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

بعد أن أنكر تحريم الزينة والطيبات، وضع أمامنا دائرة المحرمات التي تفسد الإنسان والمجتمع: الفواحش، والإثم، والبغي، والشرك، والقول على الله بغير علم.

إن الله لا يحرم الجمال، بل يحرم ما يشوّه الروح. لا يحارب الطيبات، بل يحارب الخبائث التي تفتك بالفطرة والعدل والتوحيد.

﴿الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾.

هناك فواحش تراها العيون، وأخرى تنمو في السر. وقد ينجو الإنسان من الفضيحة أمام الناس، لكنه لا ينجو بذلك من فساد الباطن.

والنقاء الحقيقي ليس أن تحسن إدارة صورتك، بل أن تكون في خلواتك أقرب إلى حقيقتك الطاهرة. فالناس يرون النسخة التي تعرضها، أما الله فيعلم النسخة التي تخفيها.

﴿وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.

البغي هو تجاوز الحد على الآخرين. ومن دقة القرآن أنه يربط فساد الفرد بفساد العلاقة؛ فالدين لا يريد إنسانًا يتطهر وحده ثم يظلم غيره. لا معنى لعبادة لا تمنع اليد من الاعتداء، واللسان من التشويه، والقوة من الطغيان.

ثم يرتقي التحريم إلى أصل الأصول: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾.

فالشرك أعظم انقلاب في ميزان الوجود: أن يُصرف حق الخالق إلى مخلوق، وأن يتعلق القلب بمن لا يملك له ضرًّا ولا نفعًا إلا بإذن الله.

ثم تختم الآية بالقول على الله بلا علم؛ لأنه الجريمة التي تستطيع أن تمنح الجرائم الأخرى صفة الدين. فإذا تكلم الجاهل باسم الله، صار هواه تشريعًا، وتحولت أوهامه إلى قيود في أعناق الناس.

لكل أمة أجل

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

للأفراد آجال، وللأمم آجال أيضًا. فالحضارات لا تملك صك الخلود، والدول التي تملأ الأرض قوةً ليست خارجةً عن قانون النهاية.

لكن أجل الأمة لا يعني أن التاريخ يجري بلا سنن. فالأمم تحمل أسباب بقائها أو سقوطها في داخلها: في تصورها للعدل، وفي أخلاق قوتها، وفي موقفها من الحق، وفي قدرتها على الإصلاح.

حين يصبح الظلم نظامًا، والكذب ثقافةً، والفساد مهارةً، ويُقصى الصادق لأنه يزعج الطمأنينة الكاذبة؛ تكون الأمة قد بدأت تحفر قبرها بيديها، وإن ظلت مبانيها قائمة.

والسقوط يبدأ في المعنى قبل أن يظهر في العمران. تموت روح الأمة، ثم يستمر جسدها زمنًا بحكم العادة، حتى تأتي اللحظة التي ينكشف فيها أن البنيان كان واقفًا على فراغ.

ثم يتكرر النداء الحميم: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

لخّصت الآية طريق النجاة في كلمتين: ﴿اتَّقَى وَأَصْلَحَ﴾.

التقوى تحرس الداخل، والإصلاح يمتد إلى الخارج. التقوى تمنع الإنسان من الفساد، والإصلاح يجعله يقاوم الفساد من حوله. فلا يكفي أن ينجو المرء بنفسه ثم يترك السفينة تغرق، ولا يكفي أن يرفع شعارات الإصلاح بينما قلبه خراب.

ثم تأتي الثمرة: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

الخوف متعلق بما يأتي، والحزن بما مضى. والمؤمن الصادق يتحرر في النهاية من سطوة الزمنين: ماضيه مغفور، ومستقبله مأمون بوعد الله.

أما المكذبون: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

عاد الاستكبار من جديد. بدأ مع إبليس، ثم صار مرضًا بشريًا متكررًا. كأن السورة تقول: إن تاريخ الباطل كله ليس إلا إعادةً موسعة لجملة إبليس الأولى. تتغير الوجوه واللغات والحضارات، لكن جوهر الرفض واحد: أعرف الحق، غير أنني أستثقل الخضوع له.

وهكذا تنتقل بنا السورة نحو مشاهد الآخرة: يوم تسقط الأقنعة، وتدخل كل أمة في حسابها، ويلعن اللاحق السابق، ويتبرأ المتبوع من التابع، ويكتشف الجميع أن التقليد لم يكن

عذرًا، وأن كثرة السائرين في طريقٍ ما لم تمنع نهايته من أن تكون هاوية.

الفصل الخامس

يوم تسقط الأقنعة وتتكلّم العواقب

بعد أن عرضت السورة خيارات الإنسان في الدنيا، تنقلنا إلى اللحظة التي تتحول فيها الخيارات إلى مصائر. هناك لا يعود الإنسان قادرًا على تعديل روايته، ولا على طلاء ماضيه بلونٍ جديد؛ فالقيامة ليست زمن العمل، بل زمن انكشاف حقيقة العمل.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾.

ما دام الإنسان في الدنيا، فقد يستطيع أن يفتري، ويكذّب، ويصنع للباطل أسماءً مهيبة. وقد يجد أتباعًا يرددون قوله حتى يتوهم أن كثرة الصدى برهان على صحة الصوت.

لكنه حين تأتيه ملائكة الموت، تتساقط الكلمات التي احتمى بها. في تلك اللحظة لا يعود للمصطلحات المزخرفة سلطان، ولا للادعاءات بريق. فالموت لا يجادل الصورة التي صنعها الإنسان عن نفسه؛ بل يكشف الحقيقة التي صار إليها.

﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

أين الذين علقتم بهم آمالكم؟ أين القوى التي ظننتم أنها تمنحكم المنعة؟ أين الأصنام الحجرية والبشرية والمعنوية التي وهبتموها من الخوف والرجاء والطاعة ما لا تستحق؟

﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾.

غابوا في اللحظة التي اشتدت فيها الحاجة إليهم. وتلك طبيعة كل معبود من دون الله: يَعِد في وقت الرخاء، ويتلاشى عند الحقيقة. يملأ القلب حضورًا في الدنيا، ثم لا يملك لصاحبه شيئًا عند الموت.

كم من إنسانٍ أفنى حياته في طلب رضا الناس، فلما حضر أجله لم ينزل معه إلى قبره واحد من الذين أغضب الله لأجلهم! وكم من صاحب جاهٍ أحاطت به الوجوه، ثم دخل وحده في الصمت الأخير!

إن كل تعلق بغير الله يحمل في داخله موعد خذلان.

﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾.

لقد انتهى زمن الإنكار. الإنسان الذي جادل طويلًا صار شاهدًا على نفسه. وليس هناك أبلغ من شهادة الخصم على ذاته.

وفي الدنيا قد يهرب المرء من محاسبة نفسه بالضجيج، والعمل المتواصل، والجدل، وصناعة الأعذار. لكنه في الآخرة يواجه نسخةً كاملة من حياته، لا يستطيع حذف مشهد منها.

من رحمة الله بالإنسان أن يدعوه إلى هذه الشهادة الآن، قبل أن تصبح شهادة إدانة لا ينفع بعدها اعتراف. فالمحاسبة في الدنيا باب إصلاح، والمحاسبة في الآخرة باب جزاء.

والعاقل لا ينتظر حتى تسأله الملائكة: أين كنت؟ ماذا أردت؟ لمن عملت؟ بل يفتح هذه الأسئلة في قلبه كل ليلة، ليخفف عن صحيفته أثقال الغفلة.

حين يتحول الأتباع والمتبوعون إلى خصوم

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ما كان في الدنيا تحالفًا يتحول هناك إلى لعنة. كانت الجماعة تمنح أعضاءها شعورًا بالأمان، وكان اللاحق يقتدي بالسابق، والضعيف يتبع القوي، والمقلّد يعفي نفسه من عناء السؤال.

فلما اجتمعوا في العاقبة نفسها، تفككت رابطة الباطل، وصار كل طرف يبحث عمّن يلقي عليه وزر المصير.

﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾.

لماذا؟

لأن الحب الذي جمعهم لم يكن حبًّا حقيقيًا، بل اشتراكًا في الغواية. ومن أعانك على معصية الله لا يحبك، وإن أضحكك وصاحبك ومدحك؛ لأنه يقودك إلى موضع سيلعنك فيه وتلعنه.

المحبة التي لا تريد لك النجاة قد تكون ألطف صور العداوة.

أما الصحبة الصادقة فهي التي تعيدك إلى نفسك حين تبتعد، وتذكّرك بالله حين تغفل، وتمنعك من الظلم ولو أغضبتك. قد تؤلمك لحظةً، لكنها لا تخون مصيرك.

قال المتأخرون للمتقدمين: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾.

إنهم يريدون تحميل القادة والمفكرين والرؤساء والأسلاف مسؤولية ضلالهم. ولا شك أن المضلّ يحمل وزره ووزرًا بسبب إضلاله، لكن التابع لا يُعفى من مسؤوليته؛ لأنه منح عقله لغيره مختارًا.

ولهذا جاء الجواب: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾.

للمتبوع ضلاله وإضلاله، وللتابع ضلاله وتعطيله لعقله واستجابته. فلا القيادة تلغي مسؤولية الجماهير، ولا الجماهير تعفي القادة من صناعة التيه.

إن القرآن لا يعترف بالإنسان بوصفه رقمًا بريئًا في قطيع. لقد أعطاه عقلًا، وأرسل إليه رسولًا، وأقام له ميزانًا. فإذا صفق للظلم، أو تبع الباطل، أو سلّم وعيه لزعيم، لم يتحول بذلك إلى كائن بلا إرادة.

وفي هذا تحرير شديد للإنسان من سطوة الأسماء. لا تقل: الجميع كانوا يفعلون. فالقيامة لا تحاسب «الجميع» ككلمة غامضة؛ إنها تستخرج كل فرد من الجموع وتسأله وحده.

﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

يرد القادة على أتباعهم: لم تكونوا أفضل منا، ولم نجبركم. لقد وجدتم في دعوتنا شيئًا يوافق أهواءكم فاتبعتمونا.

وهنا تنكشف العلاقة الخفية بين الطاغية والجمهور الذي يصنعه. فالطاغية لا يقوم بقوته وحدها؛ إنه يحتاج إلى خوف الناس، وصمتهم، وتبريراتهم، ومصالحهم الصغيرة، واستعدادهم لمبادلة الكرامة بالأمان.

كما أن المضل لا ينجح إلا حين يجد في النفوس قابليةً للضلال: رغبةً في جواب سهل، أو هروبًا من مسؤولية التفكير، أو شهوةً يمنحها غطاءً فكريًا.

الباطل مشروع مشترك، وإن تفاوتت فيه الأدوار.

أبواب لا تُفتح

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾.

عاد الاستكبار مرةً أخرى؛ فهو الخيط الأسود الذي يمتد من موقف إبليس إلى مصير المكذبين.

﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾.

عاشوا في الأرض وقلوبهم مغلقة عن الوحي، فجاء الجزاء من جنس الحال: أبواب السماء مغلقة عنهم. لم يسمحوا للحق أن يدخل إلى أرواحهم، فلم يدخلوا دار الحق والسلام.

ثم تأتي الصورة التي تقطع كل أمل في الدخول مع بقاء الكفر: ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾.

جسم ضخم يحاول أن يمرّ في ثقب إبرة! إنها صورة الاستحالة مجسّدةً أمام العين. لا تمنح النفس مساحةً للأوهام التي كانت تؤجل بها التوبة.

وفي الدنيا فتح الله أبوابًا واسعة للرجوع، لكن المتكبر أصرّ على إغلاق قلبه. فلما انتهى زمن الاختيار، انتهى معه زمن الاستدراك.

إن باب التوبة واسع الآن، لكنه ليس بابًا بلا موعد. وهذا ما يجعل اللحظة الحاضرة أثمن مما نتصور؛ فما دام القلب ينبض، يستطيع الإنسان أن يعيد كتابة خاتمته.

﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

المهاد ما يكون تحت الإنسان، والغواشي ما يغطيه من فوقه. صورة إحاطة كاملة؛ فلا موضع للهرب، ولا منفذ للراحة.

في الدنيا أحاطوا أنفسهم بالباطل: فكرًا وسلوكًا وصحبةً ومصلحةً، فجاءت العاقبة إحاطةً من جنس ما اختاروا. وما النار إلا ظهور الحقيقة الأخيرة لذلك الاحتراق الداخلي الذي عاشوه بعيدًا عن الله.

فالذنب ليس طريقًا إلى النار فحسب؛ بل يحمل شيئًا من طبيعتها منذ البداية: يحرق صفاء القلب، ويلتهم الطمأنينة، ويجعل صاحبه محتاجًا إلى مزيد منه ليستبقي لذته المتناقصة.

الجنّة: حين يشفى القلب قبل الجسد

وبعد مشهد النار، تفتح السورة نافذة النعيم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

في وسط الحديث عن العمل الصالح تأتي الرحمة: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

فطريق الجنة ليس قائمًا على تعذيب الإنسان بما لا يطيق. الله يعلم ضعف عباده، واختلاف قدراتهم، وظروفهم، وما يحيط بهم. لا يطلب منهم عصمة الملائكة، بل صدق المجاهدة، والعودة بعد الزلل، وبذل الوسع الممكن.

إن الشيطان يحاول أحيانًا أن يحوّل التدين إلى حملٍ نفسي ساحق: يطالب الإنسان بالكمال الفوري، فإذا عجز أقنعه بترك الطريق كله. أما منهج الله فيبني النفس خطوةً خطوة، ويفتح لها التوبة كلما تعثرت.

ليس المطلوب ألا تسقط أبدًا، بل ألا تتخذ من السقوط وطنًا.

ثم تصف السورة أول نعيمٍ باطني لأهل الجنة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾.

قبل ذكر الأنهار، أو في ملازمتها، يأتي نزع الغل. كأن صفاء الصدر نهر الجنة الأول.

فما قيمة القصور إذا بقيت في القلب خصومة؟ وما قيمة النعيم إذا ظل الحسد يكدّره؟ إن كثيرًا من عذاب الدنيا لا يأتي من قلة ما نملك، بل مما نحمله في صدورنا: ذكرى إساءةٍ نعيدها، وحسدٍ يقارن، وجرحٍ نرفض أن يهدأ، وكراهيةٍ نشرب نحن سمّها بينما ننتظر أن يموت بها غيرنا.

في الجنة لا يبقى شيء من ذلك. ينزع الله الغل نزعًا؛ فلا يتحول أهلها إلى كائنات بلا ذاكرة، وإنما يطهّر ذكرياتهم من الألم والحقد. يتذكرون رحلتهم، لكنهم لا ينزفون منها.

وهذا لون من النعيم يفهمه كل من أتعبه قلبه.

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾.

لم يدخلوا الجنة وهم معجبون بأعمالهم، بل دخلوا بالحمد. عرفوا أن الطاعة نفسها نعمة، وأن ثبات القلب لم يكن بطولةً مستقلة، وأن الطريق ما كان ليتضح لولا نور الله.

﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾.

هذه معرفة لا تلغي العمل، بل تحرره من الغرور. لقد عملوا، وجاهدوا، وصبروا، لكنهم رأوا يد التوفيق خلف كل ذلك. كم من إنسان عرف الحق ولم يتبعه، وكم من إنسان أراد العودة ثم غلبته نفسه! فإذا ثبت قلبك على الخير، فلا تنظر إلى غيرك من علٍ؛ بل انحنِ بالشكر لمن ثبّتك.

ثم يقولون: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾.

كانت الحياة ميدان الإيمان بالغيب، وصارت الجنة ميدان المشاهدة. ما أخبرت به الرسل صار واقعًا، وكل سجدةٍ خفية، وصبرٍ مرّ، وتضحيةٍ لم يفهمها الناس، ظهرت قيمتها الآن.

﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

لم يضع العمل ثمنًا مستقلًا عن رحمة الله؛ إنما كان سببًا لنيلها بفضله. فالذي هداهم للعمل هو الله، والذي قبله وضاعفه هو الله، والذي أدخلهم الجنة برحمته هو الله.

وهكذا يجتمع في قلب المؤمن أمران: يعمل كأن الطريق يحتاج إلى كل جهده، ويرجو كأن النجاة لا تكون إلا برحمة ربه.

حوار المصيرين

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾.

ما أثقل كلمة ﴿نَعَمْ﴾ هنا!

هي كلمة قصيرة تحمل أعمارًا كاملة من التكذيب. نعم، كان الوعد حقًا. نعم، كان الرسل صادقين. نعم، كان الموت أقرب مما تصورنا. نعم، كانت اللذة عابرةً والعاقبة باقية.

لكنها معرفة جاءت بعد انقضاء زمن الانتفاع بالمعرفة.

ليس كل يقين منجيًا؛ فهناك يقين يظهر عند الموت، ويقين في القيامة، لكنه لا ينفع صاحبه؛ لأن قيمة الإيمان أن تختار الحق حين تستطيع اختيار غيره، وأن تصدق الوعد قبل أن يتحول إلى مشهد تراه العين.

﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ۝ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾.

لم يكونوا ضالين في أنفسهم فقط؛ بل كانوا يصدون الآخرين عن الطريق، ويسعون إلى تقديم سبيل الله في صورة معوجة. فهم لا يكتفون برفض الحق، بل يشوّهونه حتى يمنعوا الناس من الاقتراب منه.

وهذه وظيفة خطيرة يمارسها بعض الناس: لا يناقشون الدين كما هو، بل يصنعون له صورةً مشوهة، ثم يحاكمونها. أو

يتخذون من أخطاء بعض المنتسبين إليه حجابًا عن أصوله، كأن سوء تطبيق البشر ينسخ حقيقة الوحي.

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾.

يريدون للطريق المستقيم أن يبدو معوجًا، وللطريق المعوج أن يبدو مستقيمًا. إنها حرب على الإدراك قبل أن تكون حربًا على السلوك؛ لأن من نجح في قلب أسماء الأشياء استطاع أن يقود الناس وهم يظنون أنهم يهتدون.

الفصل السادس

أصحاب الأعراف

الوقوف بين الخوف والرجاء

وهنا نصل إلى المشهد الذي حملت السورة اسمه: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾.

الأعراف موضع مرتفع بين الجنة والنار. وعلى هذا المرتفع رجال يرون الفريقين، ويعرفون أهل الجنة بعلاماتهم، وأهل النار بعلاماتهم.

إنه مشهد معلّق بين مصيرين: من جهة أنهار الجنة ووجوه أهلها المطمئنة، ومن الجهة الأخرى النار ووجوه أهلها التي أحرقها الندم.

ولعل في تسمية السورة بهذا الموضع دلالةً عميقة؛ فالسورة كلها قائمة على كشف الفواصل: بين آدم وإبليس، والتواضع

والكبر، والوحي والتقليد، والزينة والإسراف، والتقوى والفتنة، وأصحاب الجنة وأصحاب النار.

والأعراف هي النقطة التي تُرى منها الطرق بعد أن بلغت نهاياتها. ففي الدنيا نرى البدايات المزينة، أما من الأعراف فتُرى العواقب كاملة.

﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾.

أي شعور يسكن هؤلاء وهم يرون الجنة ولم يدخلوها بعد؟

﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾.

لم تقل الآية: وهم يوقنون بدخولها، ولا: وهم ييأسون؛ بل وضعتهم في مقام الطمع. والطمع هنا رجاءٌ ممتد إلى رحمة الله، عينٌ ترى تقصيرها، وقلبٌ لا يقطع الأمل بربه.

إن المؤمن يسير إلى الله بين خوفٍ ورجاء. فإذا غلب الرجاء بلا خوف، أمِن مكر الله وجرؤ على الذنب. وإذا غلب

الخوف بلا رجاء، أساء الظن برحمة الله وقعد عن التوبة. أما القلب السليم فيعرف عظمة الحساب، ويعرف معها سعة الرحمة.

الخوف يحرس الطريق، والرجاء يمنح القدم قدرةً على السير.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

قالت الآية: ﴿صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ﴾، كأن منظر النار مما لا تختار النفس أن تديم النظر إليه. فإذا وقعت عليه أبصارهم، لم ينشغلوا بوصف المشهد، بل فزعوا إلى الدعاء: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

لم يقولوا: لا تجعلنا في النار فحسب، بل: ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. لأن النار نهاية الظلم، والنجاة من المصير تبدأ بالنجاة من الطريق المؤدي إليه.

إن بعض الناس يريد ألا تكون عاقبة الظالمين عاقبته، لكنه يعيش بمناهجهم: يكذب كما يكذبون، ويبغي كما يبغون، ويستكبر كما يستكبرون، ثم يتمنى خاتمةً مختلفة.

لكن المصائر تنبت من الاختيارات. ومن خاف أن يكون مع الظالمين في الآخرة، فعليه ألا يكون معهم في الظلم في الدنيا، ولو ربطته بهم مصلحة أو قرابة أو شعار.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

كان لهم في الدنيا جمعٌ: مالٌ، وأتباع، وقوة، وتحالفات، وأسماء تفتح الأبواب. وكانوا ينظرون إلى ضعف المؤمنين فيظنون أن كثرة ما بأيديهم دليل رضا الله عنهم.

لكن يوم القيامة يتحول الجمع إلى رقمٍ بلا قيمة: ﴿مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾.

كل قوة لا تحرس صاحبها من غضب الله ضعفٌ مؤجل. وكل مال لا يصحب الإنسان منه خيرٌ أنفقه، عبءٌ يتركه وراءه ثم يمضي إلى حسابه. وكل جمهور يصفق للباطل يتفرق عند أول أبواب الآخرة.

ثم قالوا: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

عاد المرض الأول مرةً أخرى. من امتناع إبليس عن السجود، إلى المكذبين، إلى أصحاب النار. كأن الاستكبار هو الجدار الذي يمنع الإنسان من الانتفاع بكل نور: يرى الآية فلا ينقاد، ويسمع النصيحة فلا يرجع، ويعرف الخطأ فلا يعتذر.

المتكبر لا تنقصه الإشارة إلى الطريق؛ تنقصه القدرة الأخلاقية على الاعتراف بأنه كان في غيره.

ثم يُقال تقريعًا لأهل النار في شأن أولئك الذين احتقروهم في الدنيا: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

ما أعجب انقلاب الموازين!

أناسٌ كانوا مجهولين في الأرض، وربما مستضعفين محتقرين، حكم عليهم أهل الغرور أنهم بعيدون عن رحمة الله. فإذا بهم يُدعون إلى الجنة، وإذا بأصحاب الأحكام المتعالية يقفون وراء الحجاب.

لا يملك أحد خزائن رحمة الله، ولا يحق لبشر أن يوزعها وفق أهوائه. فقد يكون من تزدريه أقرب إلى الله منك بقلبٍ منكسر وعملٍ خفي، وقد يكون من تبهر الناس صورته خفيفًا عند الميزان.

إننا نرى ظواهر الناس، أما حقائق القلوب فعند الله. ولذلك كان التواضع للخلق ثمرةً من ثمار المعرفة بالله؛ فمن عرف

سعة رحمته، لم يحجرها على جماعته، ومن عرف خفاء الخواتيم لم يغتر ببدايته.

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

هكذا ينتهي الوقوف على الأعراف: رجاءٌ يتحول إلى أمان، وانتظارٌ ينفتح على دخول، وخوفٌ طويل تمحوه كلمة واحدة من الله.

وما دام المصير بيده، فلا ينبغي للقلب أن يتعلّق بغيره، ولا أن ييأس من رحمته، ولا أن يغتر بعمله. فالنجاة ليست أن ترى نفسك أهلًا للجنة، بل أن تظل واقفًا على باب الله، تجمع ما استطعت من العمل، وقلبك يقول:

إن لم تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين.

الفصل السابع

حين يطلب أهل النار قطرةً من نعيمٍ أضاعوه

بعد أن دخل أصحاب الأعراف الجنة برحمة الله، يعود المشهد إلى الحوار القائم بين المصيرين:

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

أصحاب النار الذين كانوا في الدنيا يملكون، ويأمرون، ويستكبرون، أصبح أقصى رجائهم قطرة ماء. سقطت مطالبهم الكبيرة، وانكمشت أمانيهم إلى أبسط الضرورات.

﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾.

الماء الذي كان في الدنيا مبذولًا، يمرّون به ولا يشعرون بعظمته، صار هناك أمنيةً لا تُنال. وهكذا تكشف الآخرة قيمة النعم التي جعلها الاعتياد صغيرةً في أعيننا.

إن النعمة لا تفقد عظمتها لأننا ألفناها. الماء الذي نشربه، والهواء الذي يدخل صدورنا، والنوم الذي يرمم أجسادنا، والقدرة على الحركة، والستر، والأمان؛ كلها معجزات يومية أطفأت كثرة التكرار وهجها في الوعي.

وحين يغيب بعضها، يدرك الإنسان أنه كان يعيش محاطًا بكرمٍ لا يحصيه.

غير أن النعيم في الآخرة ليس شيئًا يُنتزع بالطلب بعد انقضاء زمن العمل. لقد انتهى الامتحان، وأصبح لكل طريق نهايته.

﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

ليس تحريمًا اعتباطيًا، بل نتيجة خيارٍ طويل اتخذوه في الدنيا؛ إذ أعرضوا عن ماء الوحي، فجاء يوم عطشهم الأكبر. كانت آيات الله تفيض بينهم، لكنهم لم يفتحوا لها قلوبهم. فلما طلبوا قطرةً بعد زوال زمن القبول، لم يجدوا.

ثم تصف السورة الكافرين وصفًا يفتح نافذةً على طبيعة ضلالهم: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

لم يكونوا دائمًا بلا دين، بل كانت لهم صورة من الدين؛ غير أنهم اتخذوها لهوًا ولعبًا. لم يسمحوا للدين أن يعيد بناء نفوسهم، بل جعلوه جزءًا من الزينة الاجتماعية، أو مناسبةً موسمية، أو شعارًا يخدم مصالحهم.

الدين عندهم يُستعمل ولا يُتبع. يحضر في الكلمات، ويغيب عن الموازين. يُستدعى لتزكية الذات والجماعة، ويُبعد حين يطالب بالعدل أو يهدد الامتيازات.

وهذا أخطر من الغياب الصريح؛ لأن الدين حين يتحول إلى لعبة قد يمنح الإنسان شعورًا زائفًا بالأمان، فيظن أنه قريب من الله لأنه يحسن استخدام مفرداته، بينما حياته قائمة على نقيض هدايته.

الدين الحق ليس زينةً على حواف الحياة؛ بل مركزٌ يعيد ترتيبها. لا يضيف إلى الإنسان بعض الطقوس فحسب، وإنما يسأله: من ربك؟ وما غايتك؟ وبأي ميزان تحب وتبغض، وتعطي وتمنع، وتوالي وتخاصم؟

﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾.

لم تقل الآية: عاشوا في الدنيا؛ فالعيش فيها قدر الجميع. إنما قالت: ﴿غَرَّتْهُمُ﴾. والمشكلة ليست في وجود الدنيا حول الإنسان، بل في دخولها إلى موضع الآخرة من قلبه.

والغرور أن ترى الشيء على غير حقيقته: ترى المؤقت دائمًا، والوسيلة غايةً، والمهلة أمانًا، والمتاع دليلًا على الرضا، وتأخر الحساب إلغاءً له.

الدنيا لا تقول للإنسان بلسانٍ مسموع: لن تموت. لكنها ترتب مشاهدها بطريقةٍ تجعله يعيش كأنه لن يموت. كل صباح يشبه ما قبله، وكل خطة تمتد إلى سنوات، والناس

من حوله يتحركون مطمئنين؛ فينسى أن الموت لا يحتاج إلى مقدمةٍ طويلة.

وما أخطر أن يتحول طول الأمل إلى حجاب! لا يرفض الإنسان التوبة، لكنه يقول: لاحقًا. لا ينكر الآخرة، لكنه يعاملها كموعد بعيد لا يمس قرارات اليوم. وهكذا لا يهزمه الجحود الصريح، بل يهزمه التأجيل.

﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾.

ليس النسيان هنا غيابًا عن العلم؛ فالله سبحانه لا يضل ولا ينسى، وإنما المعنى: يتركهم في العذاب ولا يعاملهم معاملة من تناله الرحمة، جزاء إعراضهم عن هذا اليوم وتركهم العمل له.

لقد نسوا اللقاء لا من ذاكرتهم النظرية فقط، بل من حياتهم. قد يكون أحدهم يقر بالبعث، لكنه يتخذ قراراته كأن لا بعث. وهنا يتحول الإيمان إلى معلومةٍ معزولة لا تملك أثرًا.

إن تذكّر الآخرة ليس أن تكرر ذكر الموت بلسانك فحسب؛ بل أن يدخل الموت في هندسة اختياراتك. أن تسأل قبل الكلمة: هل أطيق أن ألقاها في صحيفتي؟ وقبل الظلم: كيف أقف به بين يدي الله؟ وقبل التنازل عن المبدأ: هل يستحق هذا المكسب العابر حسرةً باقية؟

من تذكر اللقاء تغيّر وزن الأشياء في يده؛ صغر ما يفنى، وكبر ما يبقى.

الكتاب الذي جاء بعلم

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

لم يترك الله الإنسان في غموض، ولم يكلفه أن يشق طريقه إلى الغاية بحدسه وحده. أنزل كتابًا مفصلًا على علم؛ علم بالخالق، وبالإنسان، وبالدنيا، وبالعاقبة، وبالمسالك الخفية التي تعبرها النفوس.

﴿فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ﴾.

أحكام القرآن ليست أوامر منفصلة عن معرفة طبيعة الإنسان. الذي نهى يعلم ضعف النفس، والذي أمر يعلم حاجتها، والذي وضع الحدود يعلم ما وراءها من انهيار، والذي فتح باب التوبة يعلم أن البشر يخطئون.

ولهذا فالوحي لا يقف ضد الإنسان، بل ضد ما يفسد الإنسان. يحرمه من شيءٍ محدود ليحفظ له معنىً أعظم، ويكلفه بما يشق عليه لحظةً لينقذه من مشقةٍ أطول.

ثم وصف الكتاب بأنه: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾.

الهداية تكشف الطريق، والرحمة تعين على السير فيه. فالقرآن لا يعطي الإنسان خريطةً باردة ثم يتركه، بل يخاطب خوفه ورجاءه، وضعفه وقوته، وسقوطه ونهوضه.

إنه يهدي العقل إلى الحقيقة، ويرحم القلب من التيه.

غير أن الهداية لا تثمر إلا في قلب يريدها: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

فالقرآن كالمطر؛ ينزل واحدًا، لكن الأرض تختلف في استقباله. قلب يلين فينبت، وقلب يمر عليه الماء ولا ينفذ، وقلب جعل من كبره صخرًا لا يمسك نبتًا ولا ماء.

ليست القضية في وصول النور وحده، بل في النافذة التي تستقبله.

حين يأتي تأويل الوعيد

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

هنا يأتي تأويل الكتاب بمعنى وقوع ما أخبر به من البعث والجزاء. ما كان وعدًا ووعيدًا يصبح حقيقةً قائمة.

وحينها يقول الذين نسوه: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾.

الاعتراف نفسه الذي تأخر. لقد أصبح الغيب شهادة، لكن الامتحان قد انتهى.

ثم يفتشون عن مخرجين: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ﴾، أو ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾.

إما أن يفعل غيرنا ما ينقذنا، وإما أن نعود نحن لنعمل. لكنهم في الدنيا كانوا يملكون العمل ولم يعملوا، وكانت العودة ممكنةً كل صباح، وكان باب التوبة مفتوحًا في كل ليلة.

كم من أمنيةٍ أخروية يملك الإنسان صورتها الآن! يتمنى أهل القبور تسبيحةً، أو ركعةً، أو ردّ مظلمة، أو كلمة اعتذار، وهي أشياء يستطيعها الحي ثم يؤجلها كأنه يملك الغد.

كل يوم يُعطى للإنسان هو جواب مسبق عن أمنية ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾. لقد رُدِدتَ هذا الصباح إلى الحياة؛ فماذا ستعمل غير الذي كنت تعمل؟

﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

تكرر التعبير: ﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾؛ لأن هذه هي الخسارة الأصلية. قد يخسر الإنسان مالًا فيعوضه، أو مكانةً

فيستعيدها، أو فرصةً فتأتيه غيرها. أما أن يخسر نفسه، فمعناه أن تضيع منه الأداة الوحيدة التي كان يعبر بها إلى الأبد.

لقد ربحوا أشياء خارجهم، وخسروا الكائن الذي كانت الأشياء كلها خُلقت لخدمته.

والعجيب أن الإنسان قد يقضي عمره يحمي ممتلكاته من الخسارة، لكنه لا يحمي نفسه. يغلق الأبواب على ماله، ولا يغلق منافذ قلبه عن الحسد والرياء والشهوة. يخشى أن تُسرق منه قطعةٌ من الدنيا، ولا يخشى أن يُسرق منه معنى الإيمان.

الفصل الثامن

تحت سلطان الربوبية: الكون الذي لا يخرج عن أمر الله

بعد مشاهد القيامة، تعيد السورة القلب إلى النظر في الكون: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

إن ربكم الذي يأمركم هو الذي خلق السماوات والأرض. فسلطان التشريع متصل بسلطان الخلق؛ ومن خلق الإنسان هو الأعلم بما يصلحه.

﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾.

نؤمن باستوائه سبحانه كما أخبر، استواءً يليق بجلاله، من غير تشبيهٍ ولا تكييف؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾. فلا تُقاس صفات الخالق بصفات المخلوق، ولا تخوض العقول في كيفيةٍ لم يطلعها الله عليها.

ثم ترسم الآية حركة الليل والنهار: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾.

كأن الليل يسعى وراء النهار، والنهار يتلو الليل في حركة لا تتوقف. لكن هذا الجريان الهائل لا يضطرب ولا ينسى موعده. لا يتأخر الليل عن الأرض، ولا تضل الشمس طريقها، ولا يخرج القمر من حسابه.

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾.

أجرام عظيمة، لكنها مسخّرة. وكل ما يبهر الإنسان بحجمه وقوته خاضع لأمر الله. فكيف يهاب القلب مخلوقًا وينسى خالق المخلوقات؟

إن النظر في الكون ليس رحلةً إلى الخارج فحسب؛ بل عملية تصحيح لموازين النفس. من رأى ضخامة السماوات صغرت في عينه أصنام الأرض، ومن أدرك أن النجوم مسخرات علم أن القوى التي ترهبه ليست مستقلةً عن سلطان الله.

ثم تأتي القاعدة الجامعة: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾.

كما لا خالق معه، فلا حق لأحد أن ينازعه الأمر. ومن أعجب التناقض أن يعترف الإنسان بأن الله خلقه، ثم يجعل حق توجيه حياته لهواه أو لغيره.

فالخلق بلا أمر يجعل الإنسان كأنه شيء صنعه الله ثم تركه بلا غاية، والأمر بلا خلق يجعل التشريع صادرًا ممن لا يملك الإنسان ولا يعلم حقيقته. أما في الإسلام، فالذي خلق هو الذي أمر، فاجتمع العلم الكامل بالإنسان والرحمة به والسلطان عليه.

﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

تعاظم خيره، واتسعت بركته، وتنزّه جلاله. وهو رب العالمين؛ لا رب جماعةٍ دون جماعة، ولا أرضٍ دون أرض، ولا زمنٍ دون زمن. كل الوجود واقع تحت ربوبيته، وإن تمرّد بعض أهله على عبادته.

أدب الدعاء: بين الخفاء والخوف والطمع

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

بعد عرض سلطان الله في الكون، يأتي الدعاء بوصفه الاستجابة الطبيعية لمعرفة الربوبية. من عرف أن الخلق والأمر لله، لم يجد بابًا يستند إليه أصدق من بابه.

﴿تَضَرُّعًا﴾: بانكسار الحاجة، لا باستعلاء المستغني.

و﴿خُفْيَةً﴾: لأن الدعاء في خفائه يكون أقرب إلى الإخلاص، وأبعد عن صناعة المشهد للناس. في الخلوة تسقط نبرة المتحدث أمام الجمهور، ويخرج صوت الإنسان الحقيقي: ضعيفًا، صادقًا، بلا زينة.

هناك أدعية لا تتسع لها الكلمات؛ تنهيدة يعرف الله معناها، ودمعة لا يراها أحد، وخوف يمرّ بالقلب فيستقبله الرب بعلمه قبل أن يصير عبارة.

إن الله لا يحتاج إلى ارتفاع الصوت ليسمع؛ وإنما يحتاج القلب إلى انخفاض الكبر كي يدعو.

ثم قال: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

حتى الدعاء له حدود الأدب. فلا يدعو الإنسان بإثم أو قطيعة رحم، ولا يتكلف ما لا يليق، ولا يحوّل دعاءه إلى اعتراض على حكمة الله. الدعاء عبودية، لا وسيلة لإلزام القدر برغباتنا.

نحن نسأل لأننا فقراء، لا لأننا أعلم بما يصلح لنا.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

جمعت الآية بين الدعاء والإصلاح؛ حتى لا يتوهم الإنسان أن رفع اليدين يغنيه عن كفّهما عن الفساد. لا معنى أن تطلب من الله صلاح الحال وأنت تصنع الفساد في موضعك.

الدعاء الصادق يغيّر صاحبه قبل أن يغيّر واقعه. من دعا الله بالرزق، تحرّى الحلال. ومن دعاه بالنصر، أعدّ ما يستطيع. ومن سأله إصلاح الأمة، بدأ بإصلاح ما تحت يده.

ثم رسمت الآية جناحي القلب: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

الخوف من عدله، والطمع في فضله. الخوف من الذنب، والطمع في المغفرة. الخوف من أن تُردّ الأعمال، والطمع في كرم من يقبل القليل ويضاعفه.

لا يطغى الخوف حتى يحوّل الدين إلى يأس، ولا يطغى الرجاء حتى يحوّل الرحمة إلى ذريعة للتفريط.

ثم تأتي الجملة التي تشبه نافذة نور: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

الرحمة قريبة، لكن الإحسان هو السير نحوها. وليس الإحسان دعوى وجدانية، بل أن تعبد الله بإخلاص، وأن

تحسن إلى خلقه، وأن تجعل أثر إيمانك جمالًا وعدلًا ورحمةً في العالم.

قد يشعر الإنسان أن الرحمة بعيدة لأن ألمه طال، أو لأن دعاءه لم يتحقق بالصورة التي أرادها. لكن القرب الإلهي لا يُقاس بسرعة النتائج. قد تكون الرحمة تعمل في الخفاء: تصرف شرًّا لم تره، أو تؤخر عطاءً يحميك تأخيره، أو تبني فيك قلبًا لا تبنيه الإجابة العاجلة.

المطر: صورة البعث وصورة القلوب

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

تأتي الرياح أولًا تحمل البشارة. لا ماء بعد، لكن في الهواء علامة على الرحمة المقبلة. ثم تحمل السحاب الثقيل، ويُساق إلى بلد ميت، وتنزل القطرة على التراب الذي بدا فاقدًا لكل إمكانية.

وفجأةً ينشق الموت عن حياة.

هذه الصورة حجة على البعث: من أخرج النبات من الأرض الميتة قادر على إخراج الموتى. فالذي يشاهده الإنسان كل موسم ليس مجرد ظاهرة طبيعية؛ بل تدريب متكرر للعقل على الإيمان بالقيامة.

الأرض لا تسأل كيف ستعود الحياة إليها، ولا تستبعد ذلك لأنها جافة. ينزل أمر الله بالماء، فتخرج منها ألوان الثمار.

وكذلك القلب. قد يطول عليه الجفاف حتى يظن صاحبه أنه لا يصلح للهداية. تتراكم عليه الذنوب، وتيبس مشاعره، وتغيب لذة الطاعة. ثم تمر به آية كقطرة، أو دعوة صادقة، أو محنة تكسر قشرته الصلبة؛ فإذا بما ظُنّ ميتًا ينبت من جديد.

لا تيأس من قلبٍ ما دام الله يملك المطر.

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾.

الماء واحد، لكن الثمر مختلف؛ لأن الأرض مختلفة.

وكذلك الوحي: يسمعه اثنان، فينقلب في أحدهما حياةً، ولا يزيد الآخر إلا نفورًا. ليست الآية ناقصة، بل التربة مستعدة أو خبيثة.

القلب الطيب لا يعني القلب الذي لم يخطئ، بل القلب الذي ما زال قادرًا على استقبال الحق. إذا ذُكّر تذكر، وإذا أخطأ رجع، وإذا رأى فضلًا شكر. أما القلب الخبيث فيحوّل حتى النعمة إلى مادةٍ للجحود، والعلم إلى غرور، والنصيحة إلى خصومة.

﴿لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾.

قد يملك صاحبه مواهب كثيرة، لكن ثمرتها شحيحة البركة؛ لأن فساد الداخل يفسد ما يخرج منه. الكلمة الجميلة إذا

حملها قلب متكبر قد تصبح أداةً للاستعلاء، والعلم إذا سكن نفسًا مريضة قد يصير سلاحًا للتضليل.

لهذا لا يكفي أن نسأل: ماذا دخل إلى القلب؟ بل نسأل أيضًا: في أي تربة وقع؟

وبعد أن ضربت السورة مثل الأرض والمطر، ستدخل بنا إلى تاريخ الرسالات. سنرى نوحًا وهودًا وصالحًا ولوطًا وشعيبًا وموسى عليهم السلام. وسنكتشف أن الوحي كان ينزل على الأمم كما ينزل المطر، لكن كل أمة أخرجت ما في تربتها: قلوبٌ أنبتت إيمانًا، وقلوبٌ لم يخرج منها إلا شوك الكبر والتكذيب.

فالتاريخ في سورة الأعراف ليس سجلًّا للأمم الراحلة؛ بل مختبرٌ كبير تتكرر فيه الآية، ويختلف فيه جواب الإنسان.

الفصل التاسع

موكب الرسل

نداءٌ واحد ووجوهٌ متعددة للاستكبار

بعد أن ضربت السورة مثل المطر والأرض، شرعت تعرض تاريخ الرسالات. وليس الانتقال بعيدًا عن المثل السابق؛ فالوحي مطر السماء، والقلوب أراضٍ مختلفة: منها ما يستقبل ماء الهداية فينبت إيمانًا، ومنها ما يحبس البذرة تحت صخور الكِبر حتى يهلك عطشًا والماء قريب.

تتغير أسماء الأنبياء، وتتبدل الأزمنة والأمكنة، وتختلف أمراض الأقوام، لكن النداء يبقى واحدًا: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾.

هذه هي الجملة التي دار حولها التاريخ كله. لم يكن الصراع بين الرسل وأقوامهم نزاعًا على تفاصيل صغيرة، بل على مركز الوجود الإنساني: لمن تكون العبادة والطاعة العليا؟ ومن يملك أن يحدد للإنسان معنى حياته وميزان أفعاله؟

التوحيد ليس فكرةً ميتافيزيقية معزولة؛ إنه تحرير شامل. فإذا كان الله وحده هو الإله، فلا إنسان يملك أن يتأله على إنسان، ولا كاهن يحتكر أبواب السماء، ولا طاغية يجعل إرادته قدرًا، ولا شهوة تستعبد القلب.

ولهذا خاف المستكبرون من التوحيد؛ لأنه لا يغيّر معبودًا حجريًا فحسب، بل يغير نظام القوة كله.

نوح عليه السلام: صوت الإنذار في زمن السخرية

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

بدأ نوح خطابه بقوله: ﴿يَا قَوْمِ﴾.

لم يتبرأ منهم رغم تكذيبهم، ولم يخاطبهم بلغة المنتقم. بقيت رابطة الشفقة حاضرةً في صوته: أنتم قومي، وما يصيبكم يؤلمني.

ثم قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾.

لم يقل: أخاف منكم، مع أنه لقي منهم أذى طويلًا؛ بل قال: أخاف عليكم. وهنا يظهر الفرق بين الداعية الصادق وصاحب الخصومة الشخصية. صاحب الخصومة يريد أن يُهزم خصمه، أما الرسول فيريد أن يُنقذ من يخالفه.

إنه يرى خلف قسوة المكذب إنسانًا يمشي إلى هلاكه، فيغلب عليه الحزن لا التشفي.

والإنذار في خطاب الأنبياء ليس تهديدًا نفسيًا يتلذذ به المنذر، بل صرخة رحمة قبل وصول الخطر. الطبيب لا يبغض المريض حين يخبره بخطورة دائه، بل يخشى عليه أن يقتله المرض وهو يظنه عافية.

لكن الملأ قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

لم يناقشوا حجته، بل حكموا على شخصه. وهذه حيلة الباطل حين يعجز عن مواجهة الفكرة: ينقل المعركة من البرهان إلى التصنيف.

بدل أن يسألوا: هل ما جاء به حق؟ قالوا: إنك ضال.

والمفارقة أن الضالين اتهموا الهادي بالضلال. وهذه من سنن انقلاب المعايير: إذا طال اعتياد المجتمع على الانحراف، صار المستقيم في عينه شاذًا؛ لأن الخط المعوج إذا اتخذه الجميع مرجعًا بدا الخط المستقيم هو الخارج عن النسق.

لكن نوحًا لم يسمح للإهانة أن تسحب خطابه إلى مستواها: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قال: ﴿يَا قَوْمِ﴾ مرةً أخرى. لم تغير الشتيمة قلبه، ولم تجعل الدعوة انتقامًا للذات. نفى التهمة بهدوء، ثم أعاد الحديث إلى مركزه: الرسالة والنصيحة.

﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾.

النصيحة إرادة الخير للمنصوح، حتى لو أساء استقبالها. والناصح لا يجعل قبول الناس ميزانًا لصدق واجبه؛ لأن بعض الأدوية مرّة، وبعض الحقائق تجرح الوهم قبل أن تشفي القلب.

ثم سألهم: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

كانوا يتعجبون أن يأتي الوحي على بشر منهم. وكأنهم يريدون الهداية في صورةٍ لا تشبههم، حتى يجدوا عذرًا في عدم اتباعها.

لكن من رحمة الله أن الرسول بشر: يفهم طبيعة الطريق، ويجوع ويتعب، ويثبت فيرى الناس أن التكليف ممكن. ولو كان ملكًا لقالوا: وما شأن الملك بضعف البشر؟

ثم رتبت الآية الطريق: ﴿لِيُنْذِرَكُمْ﴾، ثم ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾، ثم ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

إنذار يوقظ، وتقوى تغيّر، ورحمة تحتوي. ليس مقصد الرسالة تخويف الإنسان لذاته، بل دفعه إلى المنطقة التي تتنزل فيها الرحمة.

لكنهم كذبوه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾.

لم تقل الآية: كانوا بلا عيون، بل ﴿عَمِينَ﴾؛ لأن العمى الأخطر هو أن توجد العلامات ولا توجد البصيرة. رأوا نوحًا وثباته، وسمعوا دعوته، وشاهدوا الفلك، لكنهم لم يروا الحقيقة.

وحين جاء الماء، صار الشيء الذي حمل المؤمنين هو نفسه الذي أغرق المكذبين. فالبحر واحد، لكن الموقف من أمر الله صنع مصيرين.

هود عليه السلام: حين تغتر القوة بنفسها

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

تتكرر الأخوة: ﴿أَخَاهُمْ﴾. فالرسول ليس طارئًا غريبًا، بل واحدٌ منهم، يعرف لغتهم وتاريخهم ونفوسهم.

لكن الملأ الذين كفروا قالوا:﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

مع نوح قالوا: ضلال. ومع هود قالوا: سفاهة وكذب. تتغير التهمة وفق حاجة السلطة، لكن الهدف واحد: إسقاط صاحب الرسالة حتى لا يسمع الناس الرسالة.

والملأ هم الذين يملؤون العيون بمظاهرهم والمجالس بحضورهم. كانوا أول من واجه الرسل؛ لأن التوحيد يهدد البنية التي تمنحهم الامتياز.

أما عامة الناس فقد يرثون الباطل، لكن الملأ يديرونه ويحرسونه ويصنعون له اللغة التي تبرره.

فقال هود: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾.

مرةً أخرى لا ينفعل النبي لكرامته الشخصية. ينفي السفاهة، ولا يبادلهم بها. فالداعية إذا جعل كل طاقته في الدفاع عن صورته، ضاعت الرسالة خلف ذاته.

﴿نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾.

النصح بلا أمانة قد يتحول إلى سيطرة، والأمانة بلا نصح قد تصبح حيادًا باردًا. أما الرسول فيجمع إرادة الخير وصدق حمل الحقيقة.

ثم ذكّرهم هود بتاريخ نعمتهم: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

كانوا أمة قوة. لكن هودًا لم يقل لهم: اتركوا قوتكم، بل قال: تذكروا مصدرها.

القوة حين تنفصل عن ذاكرة المنعم تتحول إلى طغيان. يرى القوي أن تفوقه صادر عن استحقاق ذاتي، ثم يتوهم أن ما يملكه اليوم سيحرسه غدًا.

﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾.

كان ينبغي للزيادة أن تزيد الشكر، لكنها زادت الغرور. وهنا يتكرر امتحان النعمة: فالعطاء لا يجعل الإنسان صالحًا تلقائيًا؛ بل يكشف ما في قلبه. إن كان شاكرًا صار العطاء باب خدمة، وإن كان مستكبرًا صار العطاء وقودًا للاستعلاء.

إن أشد الناس افتقارًا إلى الله قد يكون أكثرهم شعورًا بالاستغناء عنه؛ لأنه محاط بأسباب القوة. لكن الأسباب لا تملك لنفسها بقاء، فكيف تمنحه؟

قالوا له: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

لقد فهموا الرسالة جيدًا: ﴿نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾. لم يكن الخلاف في وجود الله، بل في كلمة ﴿وَحْدَهُ﴾. فهي التي تقتلع الشركاء، وتحرر القلب من الولاءات المتنازعة.

ثم عاد الآباء بوصفهم حجةً؛ لأن الباطل حين يعجز عن البرهان يستدعي الموروث. كانوا مستعدين لمواجهة العذاب، لكنهم لم يكونوا مستعدين لمراجعة ما وجدوا عليه آباءهم.

وهنا يبلغ التقليد حدًا مروّعًا: أن يفضّل الإنسان الهلاك على الاعتراف بأن الماضي أخطأ.

فقال هود: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾.

ما الذي كانوا يعبدونه؟ أسماءً صنعها البشر ثم انحنوا لها.

وهذا هو جوهر كثير من الأصنام: يبدأ الإنسان بإطلاق اسم على شيء، ثم يمنح الاسم قداسةً، ثم ينسى أنه هو الذي صنعه. تتراكم حوله الحكايات، ويصبح نقده جريمة، مع أنه لا يملك سلطانًا من الله.

وما أكثر الأسماء التي تستعبد الناس: زعامة، عرق، طبقة، جماعة، تقليد، قداسة مصنوعة. تُنزع عنها الأسماء، فلا يبقى إلا بشر وأوهام ومصالح.

﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ۝ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

نسبت النجاة إلى الرحمة، لا إلى استحقاق مجرد: ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾.

حتى المؤمنون الذين أطاعوا لا ينجون بقوتهم، بل تحت مظلة الرحمة. أما القوة التي اغترت بها عاد، فلم تمنع نهايتها. لقد امتلكوا بسطة الأجساد، لكنهم لم يمتلكوا قلبًا يسجد للحق؛ فكانت ضخامة أجسامهم أصغر من أن تحميهم من أمر الله.

الفصل العاشر

ثمود

حين تُذبح الآية كي لا تزعج الشهوة

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾.

جاءت ثمود بينة محسوسة: ناقة نسبها الله إلى نفسه إضافة تشريف، وجعل وجودها امتحانًا لطاعتهم.

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

الأرض أرض الله، والناقة ناقة الله، والإنسان مستخلف لا مالك مطلق. وهذه الحقيقة تهدم جذور الاستبداد: فما في يد الإنسان ليس ملكًا منفصلًا عن حق الله، بل أمانة تجري عليها حدوده.

كان الامتحان بسيطًا في صورته: اتركوها تأكل، ولا تمسوها بسوء. لكن النفس المستكبرة لا يزعجها حجم التكليف بقدر ما يزعجها وجود حدّ لا تملكه.

الطاغية لا يكره الشيء لأنه يضره دائمًا؛ قد يكرهه لأنه يذكّره بأن سلطانه ليس مطلقًا.

ذكّرهم صالح بالنعمة: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

كانت ثمود أمة عمران. صنعت من السهول قصورًا، ونحتت الجبال بيوتًا. امتلكت مهارةً هندسية جعلت الصخر نفسه قابلًا للتشكيل.

لكنها نجحت في نحت الجبال وفشلت في تهذيب النفس.

وهنا تكشف السورة أن التقدم المادي لا يعني الرشد الأخلاقي. قد يرتقي الإنسان في أدواته، ويبقى بدائيًا في شهواته؛ يبني مدنًا ذكية بقلبٍ لا يعرف العدل، ويخترق أعماق الأرض بينما يعجز عن اختراق طبقة الكِبر في داخله.

الحضارة ليست ما تبنيه اليد وحدها، بل ما يصير إليه الإنسان وهو يبني. فإذا عظمت المنشآت وصغر الضمير، أصبح العمران غلافًا متينًا لوحشية متطورة.

﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

فالأرض التي يسكنها الإنسان سبقته إليها نعمة الله، ولا يحق له أن يحولها إلى مسرح لجشعه. هو مستخلف فيها، لا وحش أُطلق ليأكل كل شيء.

لكن الملأ المستكبرين سألوا الضعفاء المؤمنين: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾.

في السؤال نبرة استعلاء واختبار. كأن الإيمان عندهم سذاجة خاصة بالمستضعفين. لكن المؤمنين أجابوا بثبات: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

لم يقولوا: إننا معجبون بصالح، بل آمنوا بما أرسل به. إنهم يربطون أنفسهم بالرسالة، لا بشخصٍ مجرد.

فقال المستكبرون: ﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾.

لاحظ كيف أصبح إيمان المستضعفين نفسه سببًا إضافيًا لكفر المتكبرين. فالاستكبار الطبقي قد يجعل الإنسان يرفض الحق لأنه دخل إليه من الباب الذي يقف عنده الفقراء.

ليس اعتراضه على الفكرة دائمًا، بل على أن يتساوى في اتباعها مع من يحتقرهم. يريد حقيقةً تمنحه امتيازًا، لا حقيقةً تجعله عبدًا بين عباد الله.

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

لم يقتلوا ناقةً فحسب؛ بل حاولوا قتل الآية التي تذكرهم بحدودهم. فعقرها كان إعلان تمرد على أمر الله.

﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾.

العتوّ هو تصلب الاستكبار حتى يصير صاحبه عاجزًا عن التراجع. وقد يصل الإنسان إلى مرحلة لا يرتكب فيها المعصية طلبًا للذتها، بل إثباتًا لقدرته على العصيان.

ثم استعجلوا العذاب، كأن تأخره دليل عجز: ﴿ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾.

وهكذا حين يفقد القلب حسّه، يحول الإنذار إلى مادة للسخرية، ويمشي نحو الهاوية وهو يتحدى من حذره منها.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾.

لم تحمهم الجبال التي نحتوها. البيوت التي ظنوها عنوانًا للقوة صارت إطارًا لصمتهم الأخير.

إن البناء يحمي من طقس الأرض، لكنه لا يحمي من أمر السماء.

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾.

هذه من أوجع لحظات القصة. يقف صالح أمام ديار خمدت أصواتها، ويعلن أن المشكلة لم تكن في غياب النصيحة، بل في كراهية الناصحين.

قد يكره الإنسان النصيحة لا لأنها كاذبة، بل لأنها تصيبه في موضع لا يريد أن يراه. يحب من يطمئنه إلى نفسه، ولو خدعه، وينفر ممن يكشف له العطب، ولو أراد نجاته.

﴿وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾.

الأمم التي تكره أصوات المراجعة تبدأ بالموت من الداخل. حين لا يُسمع إلا المادحون، يصبح الخطأ آمنًا، ويواصل نموه حتى يهدم الجميع.

الناصح مرآة؛ وكسر المرآة لا يصلح الوجه.

الفصل الحادي عشر

قوم لوط

حين تنقلب الفطرة وتُطارَد الطهارة

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.

سمّى الفعل باسمه: ﴿الْفَاحِشَةَ﴾. لم يسمح للألفة الاجتماعية أن تغيّر حقيقته. فالشيء لا يصبح طاهرًا لأن مجتمعًا طبّعه، ولا يفقد قبحه لأن القانون حماه أو الثقافة زيّنته.

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾.

المشكلة ليست وجود الشهوة؛ فالشهوة جزء من تكوين الإنسان. المشكلة أن تنفصل عن هداية الفطرة وحدود الله، فتتحول من طاقةٍ للحياة إلى قوة تهدم ميزانها.

﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾.

الإسراف تجاوز الحد. وقد بدأ في السورة بالإسراف في الطعام والشراب، ثم ظهر هنا في الشهوة. فالنفس إذا لم تعترف بحدّ، لا تقف عند شيء؛ وكل إشباع يفتح لها بابًا إلى طلب أشد.

الحرية التي لا تملك القدرة على قول «لا» للرغبة ليست حرية، بل استسلام مزخرف.

لكن جواب القوم كان عجيبًا: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.

تحولت الطهارة إلى تهمة تستوجب الطرد.

هذه هي اللحظة التي يبلغ فيها فساد المجتمع مرحلةً خطيرة: لا يكتفي بفعل المنكر، بل يضيق بوجود من يذكّره بأن المنكر منكر. فالمستقيم يزعج الفاسد حتى لو لم يتكلم؛ لأن مجرد وجوده يكشف أن الاستسلام لم يكن قدرًا محتومًا.

﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.

قالوها سخريةً، فسجلها القرآن مدحًا خالدًا. وقد يصفك خصمك بصفة يظنها عيبًا، وهي عند الله شرفك.

والباطل حين يسيطر على المجال العام يعيد ترتيب الأوصاف: تصبح العفة عقدةً، والحياء تخلّفًا، والثبات تشددًا، والغيرة على الحدود كراهية. ثم لا يسمح للطهر بأن يعيش هادئًا؛ فلا بد أن يُقصى، لأن وجوده يهدد الإجماع المصنوع.

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾.

لم تنجُ امرأة لوط بمجرد قربها من النبي. فالقرابة لا تعوض عن الموقف، والبيت الصالح لا ينجي قلبًا اختار الولاء للباطل.

قد يسكن الإنسان بجوار النور ولا يفتح عينيه. وقد يعرف الصالحين ويحب صورتهم، لكنه لا يلتحق بطريقهم.

النجاة علاقة إيمان، لا وراثة مكان.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾.

قبل قليل كان المطر رحمةً يحيي الأرض، وهنا صار عذابًا. وما أكثر ما تختلف دلالة الشيء بأمر الله! فالكون ليس قوةً عمياء؛ إنه جند خاضع لرب العالمين.

ثم لم تقل الآية: انظر كيف كانوا في أوج قوتهم، بل: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾.

القرآن يدرب العين على النظر إلى العاقبة؛ لأن الباطل في منتصف الطريق قد يبدو منتصرًا، ولا يظهر حكم القصة إلا عند نهايتها.

الفصل الثاني عشر

شعيب عليه السلام

حين يصبح الميزان قضية إيمان

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾.

بدأ شعيب بالتوحيد، ثم انتقل مباشرةً إلى السوق.

وهذا وحده يهدم الوهم الذي يفصل العقيدة عن المعاملة. فقولك: لا إله إلا الله، يجب أن يظهر في الميزان، والسعر، والعقد، والأجر، وحقوق الناس. فإذا سجد الإنسان في المسجد ثم سرق في السوق، فقد أبقى العبادة طقسًا ومنعها أن تصبح ميزانًا للحياة.

﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾.

إن الله حاضر عند طرف الميزان. والجرام الذي يختلسه البائع يراه الله، والحق الصغير الذي يستضعف صاحبه مكتوب، والأجر الذي يؤخره القادر، والعمل الذي يغش فيه الأجير، كلها قضايا إيمانية قبل أن تكون مخالفات اقتصادية.

ثم جاءت العبارة الأوسع: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾.

لم تقل: أموالهم فقط، بل ﴿أَشْيَاءَهُمْ﴾. فلا تبخسهم أموالهم، ولا جهودهم، ولا أقدارهم، ولا حقوقهم، ولا فضلهم.

قد يبخس الإنسان خصمه حسنةً لأنه يكرهه، أو ينسب جهد غيره إلى نفسه، أو يقلل من قيمة العامل لأنه ضعيف، أو يحجب كلمة إنصاف حتى لا يرتفع منافسه.

والبخس سرقةٌ قد لا تقع باليد؛ قد تقع بكلمة، أو صمت، أو تقييم جائر.

إن من تمام العدل أن تعطي الشيء اسمه الحقيقي، وصاحبه حقه الحقيقي، ولو لم يكن من جماعتك، ولو لم تحبه.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

الاقتصاد الفاسد ليس خللًا في الأرقام وحدها؛ إنه إفساد للأرض. حين ينعدم العدل في السوق، ينهار الأمان بين الناس، ويتحول كل تعامل إلى كمين محتمل.

الثقة ثروة خفية تبني المجتمعات. فإذا شاع الغش، صار الناس ينفقون أعمارهم في الحذر بعضهم من بعض. تتضخم العقود والحراسات، لكن الضمير يتقلص.

﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾.

قد يظن الغاش أنه ربح؛ لأنه أخذ أكثر مما يستحق. لكنه خسر بركة ماله، وطهارة قلبه، وثقة مجتمعه، وأعدّ لنفسه

حسابًا. إن الربح الذي يُبنى على بخس الناس خسارة تأخر ظهورها.

ثم حذرهم شعيب من قطع الطريق على الإيمان: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾.

إنه التعبير نفسه الذي ظهر في وصف إبليس: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

وكأن الذين يصدون الناس عن سبيل الله يتحولون إلى امتداد بشري للمشروع الإبليسي. قد لا يرون الشيطان، لكنهم يجلسون في موضعه، ويؤدون وظيفته: التخويف، والتشويه، وتعويق السائرين.

﴿تُوعِدُونَ﴾: تهددون من آمن؛ لأن الباطل لا يكتفي بالبرهان الضعيف، بل يستعين بالقوة حين يخسر الحجة.

﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾: تشوهون الطريق حتى ينفر الناس منه.

ثم ذكّرهم بتحولهم الاجتماعي: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾.

كانوا قلةً ضعيفة، ثم منحهم الله العدد والقوة. لكنهم قرؤوا النتيجة ونسوا الرحلة. وهذه آفة النجاح: ينسى الإنسان الأيام التي كان فيها محتاجًا، ثم يعامل المحتاجين كأن ضعفهم عيب.

الذاكرة الأخلاقية تحمي القوي من القسوة. تذكّر ضعفك القديم حتى لا تحتقر ضعيف اليوم.

﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

حين انقسم المجتمع، لم يدعُ شعيب إلى الفوضى، بل إلى الصبر وانتظار حكم الله. فالداعية لا يستعجل النتيجة حتى يفسد الوسيلة. الحق لا يحتاج إلى ظلمٍ لينتصر، ولا إلى كذبٍ ليقنع، ولا إلى خيانةٍ ليبقى.

﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

حكم الله لا يضل بسبب نقص المعلومات، ولا يميل بسبب الهوى، ولا يُشترى بالنفوذ. يعلم الظاهر والخفي، والدافع والفعل، وما قيل وما سُكت عنه.

والطمأنينة إلى حكم الله تحرر الإنسان من جنون الانتقام. يفعل ما يجب، ويقول الحق، ثم لا يجعل قلبه معلقًا بضرورة أن يرى كل حكمٍ منفذًا أمام عينيه.

لكن الملأ المستكبرين قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾.

حين عجزوا عن رد الحجة، انتقلوا إلى سياسة الطرد والإكراه.

قالوا: ﴿مِنْ قَرْيَتِنَا﴾، كأن القرية ملك خاص لهم، وكأن المخالف يفقد حقه في الوطن. الطغيان دائمًا يختطف اسم المكان، ثم يوزع حق الانتماء وفق الولاء له.

إما أن تعودوا إلى ملتنا، وإما أن تخرجوا. لا مساحة لضمير حر، ولا لاعتقاد لا تصادق عليه السلطة.

فقال شعيب: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾.

هل تريدون منا أن نكذب على قلوبنا؟ أن نقول ما لا نؤمن به حتى تسمحوا لنا بالبقاء؟

الإيمان الذي دخل القلب لا يستطيع أن يعود إلى الباطل وكأن شيئًا لم يكن. فمن رأى النور لا يعود الظلام في عينه مجرد خيار آخر.

﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾.

سمّى الخروج من الباطل نجاةً. قد يكون الباطل مألوفًا ومريحًا اجتماعيًا، لكنه حفرة. وقد يكون طريق الحق شاقًا، لكنه إنقاذ.

ثم أظهر شعيب تمام افتقاره إلى الله:

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾.

لم يغتر بثباته، ولم يقل: نحن أقوى من أن نعود. فالقلوب بين يدي الله، والثبات نعمة تحتاج إلى سؤال دائم.

المؤمن لا يثق بنفسه ثقةً تجعله مستغنيًا عن الحفظ الإلهي؛ يعرف مواضع ضعفه، فيتوكّل على ربه.

﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾.

التوكل هنا جاء في مواجهة التهديد. ليس انسحابًا من الفعل، بل مصدر قوةٍ يمنع الخوف من أن يصبح سيد القرار. يفعل الإنسان ما يستطيع، ثم يعلم أن خصومه لا يملكون له إلا ما أذن الله به.

ثم دعا شعيب: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾.

الفتح هنا حكم وفصل. لم يطلب انتصار ذاته، بل ظهور الحق. وهذه دقة عظيمة: فقد ينتصر الإنسان لنفسه ويخسر الحق، وقد يرفع شعار الدين بينما يتحرك لجرح شخصي.

الدعاء الصادق يطلب من الله أن يفتح بالحق، ولو كشف الحق نقص الداعي نفسه.

أما الملأ فمارسوا التخويف الاقتصادي: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾.

هذه من أقدم حيل الباطل: ربط الاستقامة بالخسارة. لا تتبعوا الحق؛ ستفقدون السوق والمصلحة والمكانة. فالإنسان قد يحتمل ضعف الحجة، لكنه يرتجف أمام تهديد رزقه.

غير أن السؤال الحقيقي ليس: ماذا سأخسر إذا اتبعت الحق؟ بل: ماذا سأخسر إذا خنت الحق؟

قد يخسر المؤمن فرصةً عابرة، لكنه يحفظ نفسه. أما من يبيع مبدءه ليحمي رزقه، فقد حمى شيئًا خارج ذاته وهدم ذاته من الداخل.

ثم جاءت العاقبة: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ۝ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾.

قالوا للمؤمنين: إنكم الخاسرون. فجاء الحكم الأخير: ﴿كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾.

هذه الـ﴿هُمُ﴾ تعيد الميزان إلى موضعه. قد يملك الباطل زمام التعريف زمنًا، فيسمّي الثابت خاسرًا والمنافق ناجحًا، لكن النهايات تسترد الأسماء الحقيقية.

﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾.

كأنهم لم يقيموا في ديارهم، ولم يبنوا، ولم يساوموا، ولم يهددوا. حياة كاملة أصبحت كأن لم تكن.

ثم تولى شعيب عنهم وقال: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾.

لقد أدّى واجبه حتى نهايته. وحزن الداعية لا يجوز أن يتحول إلى اعتراض على اختيار من أصر على الهلاك. يبذل قلبه في النصح، لكنه يعرف أن الهداية ليست بيده.

وهكذا ينتهي موكب الأنبياء في هذا المقطع، وتبقى الرسالة واحدة: التوحيد في القلب، والعدل في السوق، والطهارة في الغريزة، والشكر في القوة، والحرية من طغيان الموروث.

لكن السورة لم تنتهِ من كشف قوانين الأمم؛ فبعد قصص الرسل ستضع يدها على قانونٍ دقيق: لماذا تبدأ المجتمعات بالضراء؟ ولماذا تتحول الشدة أحيانًا إلى يقظة، وتتحول النعمة أحيانًا أخرى إلى غفلة؟ وكيف يستدرج التاريخ أمةً تظن أن اتساع الحياة حولها دليل أمان، بينما تكون سائرةً إلى لحظة الأخذ المباغت؟

الفصل الثالث عشر

سنن اليقظة والسقوط

حين تُبتلى الأمم فلا تفهم الرسالة

بعد استعراض مصائر الأقوام، تتوقف السورة عن ذكر الأسماء لتكشف القانون الذي جرى في الجميع: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾.

كانت الرسالة تأتي بالكلمة، ثم تأتي الشدة لتفتح في القلب منفذًا لسماعها. فالبأساء والضراء ليستا دائمًا عقوبة نهائية، بل قد تكونان نداء رحمة، يهزّ الله به الإنسان قبل أن يستقر في غفلته.

﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾.

لم يكن المراد أن يتألموا لذات الألم، بل أن يسقط الجدار الذي أقامته القوة بينهم وبين الحقيقة. فالإنسان في الرخاء

قد يظن أنه قائم بنفسه؛ يرى الأسباب حوله فتغيب عنه يد المسبّب. فإذا انكسرت الأسباب، سمع فقره لأول مرة.

المحنة لحظة مكاشفة: تُسقط عن الإنسان تعريفاته المزخرفة، وتعيده إلى اسمه الأول: عبدٌ ضعيف يحتاج إلى ربه.

لكن ليس كل ألمٍ يلد هداية. قد تمر المحنة على القلب فتليّنه، وقد تمر عليه فتزيده قسوة. والماء نفسه الذي يذيب التراب لا يذيب الحجر.

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا﴾.

بعد الشدة جاءت السعة. تبدّل الضيق رخاءً، والمرض صحةً، والقلة كثرةً، حتى نما عددهم واتسعت أموالهم.

وهذا امتحان ثانٍ، وربما كان أدق من الأول. ففي الشدة يعرف الإنسان حاجته، أما في الرخاء فقد ينسى. المحنة

تكسر غروره ظاهرًا، لكن النعمة تختبر ما إذا كان الانكسار قد صار معرفةً راسخة أم كان مجرد خوف عابر.

﴿حَتَّى عَفَوْا﴾: كثروا ونموا واتسعوا.

كان ينبغي أن يقولوا: هذه رحمة بعد شدة، فلنشكر. لكنهم قالوا: ﴿قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾.

أي إن ما جرى ليس رسالةً ولا تنبيهًا؛ إنما هي دورة الحياة المعتادة. أصابت آباءنا شدائد ومسرات، وها نحن نتقلب مثلهم.

وهنا يظهر نوع خفي من العمى: تحويل الآيات إلى مجرد أحداث، وفصل الوقائع عن دلالاتها الأخلاقية. يرى الإنسان التحول الكبير في حياته، لكنه لا يسأل: ماذا يريد الله مني؟ بل يدرجه في سلسلة المصادفات وينتهي.

إن الغافل لا تنقصه الآيات؛ تنقصه القدرة على قراءتها.

قد ينجو من مرضٍ كاد يهلكه، ثم يعود إلى حياته القديمة كأن شيئًا لم يحدث. وقد تُفتح له أبواب بعد ضيق، فلا يرى في الفتح مسؤوليةً جديدة، بل فرصةً أوسع للغفلة.

﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

كانت البغتة ثمرة فقدان الشعور. لم يعد في داخلهم جهاز إنذار أخلاقي؛ فظنوا أن سكون الخارج أمان، وأن امتداد النعمة شهادة بالسلامة.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

قد يكون الهلاك قد بدأ فيهم قبل أن يأتيهم من خارجهم. تموت بصيرة الأمة، وتتعطل حساسيتها تجاه الظلم، وتصبح الخيانة مهارةً، والكذب سياسةً، والفساد نمطًا عاديًا؛ ثم تظل تملك الأسواق والمباني والجيوش، فتظن أنها حية.

لكن الحياة الحضارية ليست حركة الجسد وحدها؛ إنها بقاء المعنى الذي يستحق أن يعيش الجسد من أجله.

و«البغتة» لا تعني أن الإنذارات لم تأتِ، بل أنهم لم يعودوا قادرين على سماعها. مرّ بهم الأنبياء، وتكلم الناصحون، وجاءت الشدائد، ثم جاء الرخاء؛ لكنهم جعلوا من كل رسالة ضوضاءً عابرة.

التقوى التي تفتح أبواب السماء والأرض

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

لم يقل: لأعطيناهم أشياء فحسب، بل: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ﴾.

البركة ليست مجرد كثرة؛ فقد تكثر الأموال وتقل السعادة، وتتسع المدن وتضيق الأرواح، وتتضاعف وسائل الاتصال ويزداد الناس وحشةً.

البركة أن يؤدي القليل غايته، وأن يتسع الزمن للعمل النافع، وأن يصير العلم هدايةً لا غرورًا، والمال سكينةً لا صراعًا، والقوة حمايةً لا استبدادًا.

وقد يملك المجتمع موارد واسعة، لكنه يعيش في فقر البركة؛ لأن الفساد يبتلع الثروة قبل أن تصل إلى الإنسان، والظلم يحول النعمة العامة إلى امتياز خاص.

﴿مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.

من فوقهم ومن تحت أقدامهم؛ إحاطة بالعطاء تقابل إحاطة العذاب التي سبقت في وصف أهل النار. فالكون نفسه قد يصير أبواب رحمة حين يستقيم الإنسان مع ربه، وقد يتحول إلى شاهد عليه حين يتمرد.

وهذا لا يعني أن كل مؤمن يوسّع عليه ماديًا، أو أن كل مصيبة دليل على فساد أصحابها؛ فالدنيا دار ابتلاء، وقد يُبتلى الصالح ويُستدرج الطالح. لكن الآية تقرر قانونًا عامًا: أن الإيمان والتقوى يصنعان شروط البركة، وأن التكذيب والفساد يحملان أسباب المحق، وإن تأخر ظهورها.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ۝ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾.

في الليل نوم، وفي الضحى لعب. وفي الحالين غفلة عن قرب التحول.

قد تأتي النهاية حين يكون الناس في أقصى شعورهم بالاستمرار: نائمين في بيوتهم، أو منطلقين في لهوهم، يرتبون لمستقبلٍ لا يعلمون أنهم لن يدركوه.

والآيات لا تريد للمؤمن أن يعيش مذعورًا من كل لحظة، بل مستيقظًا فيها. هناك فرق بين الخوف الذي يشلّ الحياة، واليقظة التي تطهّرها. المؤمن يبني ويعمل ويفرح، لكنه لا يمنح الدنيا عهدًا بأنها ستبقى.

إنه يعيش اللحظة نعمةً لا ملكية أبدية.

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

الأمن من مكر الله هو أن يصر الإنسان على المعصية، ثم يطمئن إلى أن النعمة ستبقى وأن الحساب لن يأتي. يرى الستر رضا، والإمهال إقرارًا، وسعة الرزق علامة نجاة.

لكن تأخر العقوبة قد يكون مهلة توبة، وقد يكون استدراجًا. والفارق لا يُعرف من اتساع الدنيا، بل من حال القلب: هل زادته النعمة شكرًا أم غفلة؟ هل أعادته المهلة أم زادته جرأة؟

المؤمن لا يسيء الظن بالله، لكنه يسيء الظن بنفسه؛ فلا يعتمد على عمله، ولا يغتر باستقامته، ولا يضمن خاتمته. يعيش بين رجاء الرحمة والخوف من التقصير.

أما الخاسر فيحوّل رحمة الإمهال إلى حجة للاستمرار.

الذين يرثون الأرض ولا يرثون العبرة

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

تقف أمة فوق أنقاض أمة، وتسكن بيوت قوم رحلوا، ثم تتصرف كأن القانون الذي أخذ السابقين لا يعنيها.

إن وراثة الأرض لا تضمن وراثة الحكمة. قد يقرأ الجيل قصة سقوط من قبله، لكنه يكرر الأسباب نفسها بأسماء جديدة. يرى القبور، ويبني خططه كأنه استثناء من الموت؛ ويرى خرائب الدول، ثم يتعامل مع سلطانه كأنه محصّن ضد الزمن.

﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

الطبع على القلب ليس غياب الصوت عن الأذن، بل فقدان القدرة على الانتفاع به. يسمع الإنسان الموعظة، ويوافق عليها، وربما يعجب بجمالها؛ لكنها لا تعبر إلى قراره.

وما أخطر أن يتحول الحق إلى مادة ثقافية لا قوة مغيرة! نقرأ قصص الطغاة بإدانة، ثم نمارس استبدادًا صغيرًا في بيوتنا ومؤسساتنا. نلعن الغش، ثم نبخس الناس حقوقهم. نتأثر بتوبة آدم، ثم نعيش بمنطق إبليس في تبرير أخطائنا.

السماع الحق أن تتحول الآية من صوتٍ في الأذن إلى سلطةٍ على النفس.

﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾.

التكذيب الأول ليس لحظة عابرة دائمًا؛ قد يصبح مسارًا يغلق على صاحبه أبواب المراجعة. يرفض الإنسان الحق في البداية لهوى أو مصلحة، ثم يضطر لاحقًا إلى حماية موقفه؛ فيعيد تفسير كل دليل بما يحفظ له رفضه القديم.

وهكذا يصير أسيرًا لأول موقف اتخذه.

كان يستطيع في البداية أن يقول: أخطأت. لكن كل يوم تأخير يجعل الاعتراف أثقل؛ لأنه لم يعد يتراجع عن فكرة وحدها، بل عن تاريخ صنعه حولها، وصورة قدّمها للناس، ومصالح ارتبطت بها.

لهذا كانت المبادرة إلى الرجوع نجاة. فالحق الذي ترفضه اليوم قد تستطيع قبوله غدًا، لكنك لا تضمن أن يبقى قلبك بالقابلية نفسها.

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ۝ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾.

العهد هو ذلك الخيط الأخلاقي الذي يربط المعرفة بالوفاء. لكن أكثرهم قطعوا الخيط؛ عرفوا ثم نقضوا، ووعدوا ثم خانوا، ورأوا الآية ثم غادروا مقتضاها.

﴿لَفَاسِقِينَ﴾: خارجين عن حدود الطاعة، كما تخرج الثمرة من قشرها. والفسق ليس خطأً مفردًا فحسب، بل خروج متكرر حتى يصير الخارج مألوفًا والحد غريبًا.

وهنا تمهد السورة لانتقالها إلى أطول مشاهدها وأشدها كثافة: موسى في مواجهة فرعون.

فإذا كانت القصص السابقة قد عرضت أمراض أقوام متفرقة، فإن قصة موسى ستجمع لنا شبكةً كاملة من الصراع: طاغيةً يدّعي السيادة، وملأً يصنعون له الرأي، وسحرةً ينقلبون من أدوات للسلطة إلى شهداء للحق، وشعبًا مستضعفًا يحمل آثار العبودية في داخله حتى بعد أن تنكسر أغلاله من الخارج.

الفصل الرابع عشر

موسى وفرعون

حين تقف العصا أمام العرش

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾.

قالت الآية: ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾.

الآيات جاءت لتنير، لكنهم عاملوها بالظلم: جحدوها، ووضعوها في غير موضعها، وسمّوا المعجزة سحرًا. وهذا يكشف أن البرهان لا يعمل وحده في فراغ؛ فقد تكون الحجة ساطعةً، لكن المصلحة تقيم بينها وبين القلب جدارًا.

لم يكن فرعون جاهلًا بالمعنى الذي جاء به موسى فحسب؛ كان خائفًا من نتائجه. فالإيمان برب العالمين يعني أن فرعون ليس ربًّا، وأن الناس ليسوا عبيده، وأن السلطة لها حدّ أعلى تقف عنده.

كان التوحيد في قصره ثورةً على تعريف القوة.

﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

دخل موسى على أعظم طاغية في زمانه بلا جيش، لكنه حمل كلمةً أعظم من عرش فرعون: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

رب العالمين، لا رب مصر وحدها، ولا رب بني إسرائيل وحدهم. بهذا التعريف سقط الاحتكار الفرعوني للسيادة؛ ففرعون عالم صغير داخل عوالم يملكها الله.

ثم أعلن موسى أخلاق الرسالة: ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾.

إن من يحمل رسالة الله لا يملك أن يكذب لخدمتها، ولا أن يختلق خبرًا لينصرها. فالحق لا يُنصر بباطل؛ لأن الوسيلة الكاذبة تزرع في النتيجة فسادها.

ثم جاء الطلب السياسي التحرري واضحًا: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

الإيمان هنا لم يبق في دائرة الوجدان، بل طالب بتحرير المستضعفين. فعبادة الله وحده تقتضي ألا يستعبد فرعون خلق الله.

إن الرسالات لا تكتفي بأن تعلّم المظلوم الصبر على القيد، بل تخاطب الطاغية: أرسل من استعبدت.

قال فرعون: ﴿إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ۝ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾.

العصا أداة بسيطة يحملها الراعي في الصحراء، لكنها حين تعلقت بأمر الله وقفت أمام عرش إمبراطورية.

وهذا درس في ميزان القوة: قيمة الأداة ليست في مادتها وحدها، بل في الجهة التي تسندها والغاية التي تحملها. قد تكون في يد الحق عصًا، وفي يد الباطل خزائن وجيوش؛ لكن العصا المؤيدة بآية الله أكبر من حضارة يحكمها الغرور.

ولا يعني ذلك ترك الأسباب؛ فموسى سار، وواجه، وتكلم، وألقى. لكنه لم يعبد السبب الذي في يده، بل وثق برب السبب.

قال الملأ: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ۝ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾.

لم يواجهوا الآية بوصفها آية، بل أعادوا تصنيفها: سحر. ثم نقلوا المعركة من سؤال الحقيقة إلى سؤال الخوف: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾.

هكذا تصنع السلطة الذعر حين تعجز عن البرهان. لا تقول للناس: ناقشوا ما جاء به موسى، بل تقول: موسى يهدد أرضكم وهويتكم وأمنكم.

تحوّل الطاغية الذي استولى على الأرض إلى حارسٍ مزعوم لها، وصار النبي الذي يطلب تحرير المستضعفين عدوًا للوطن!

إن الطغيان لا يقدم نفسه بوصفه طغيانًا، بل بوصفه حمايةً من الفوضى. يربط وجود الوطن بوجوده، حتى يبدو الاعتراض على الحاكم خيانةً للأرض.

والملأ يعلمون أن الجماهير إذا خافت توقفت عن التفكير. فالخوف يختصر العالم في سؤال البقاء، ويجعل الإنسان مستعدًا لتسليم حريته لمن يعده بالأمان.

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۝ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾.

قررت السلطة أن تواجه المعجزة بعرض جماهيري منظم. فبدل أن تعترف بما رأت، أرادت أن تصنع مشهدًا بديلًا يلتبس فيه الحق بالسحر.

وهنا نرى أن الباطل يهتم بالمسرح بقدر اهتمامه بالحجة، بل أكثر. يحتاج إلى الحشود، والإخراج، وتوقيت العرض، وإشعار الناس أن الدولة كلها تقف في جهة واحدة.

كان هدفهم ألا يتركوا الإنسان وحده أمام الآية؛ لأن الخلوة بالحقيقة خطيرة على الطغيان. لا بد من إحاطته بالجمهور والضجيج والتفسير الرسمي، حتى يرى بعين الجماعة لا بعينه.

ولكن الله سيجعل المسرح الذي أعدّوه لهزيمة موسى منبرًا لانكشاف الحق. وسيأتي السحرة طامعين في قرب فرعون وأجره، ثم يسجدون في لحظةٍ واحدة لرب العالمين؛ لأنهم كانوا أعرف الناس بالفرق بين حدود الصنعة البشرية وآية الله.

وهناك ستقع واحدة من أعظم التحولات النفسية في السورة: رجال يدخلون الساحة وهم يسألون عن المال، ويخرجون منها وهم مستعدون لأن تُقطع أيديهم وأرجلهم؛ فما الذي حدث في تلك اللحظة القصيرة؟ وكيف استطاع السجود أن يحررهم من خوفٍ صنعه فرعون طوال عمر؟

الفصل الخامس عشر

سجدة السحرة

اللحظة التي انهار فيها الخوف

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ۝ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾.

دخل السحرة ساحة المواجهة بأرواحٍ معلقة بالأجر والقرب من السلطان. لم يسألوا: أي الفريقين على الحق؟ بل سألوا: ماذا سنأخذ إن انتصرنا؟

وهنا تكشف السورة عن الإنسان حين تتحول موهبته إلى أداةٍ في يد السلطة. لقد امتلك السحرة خبرة، لكنهم لم يسألوا عن الغاية التي تستخدم فيها خبرتهم. وكانوا مستعدين أن يوظفوا علمهم لتثبيت طغيان فرعون ما دام الثمن مناسبًا.

العلم لا يمنح صاحبه الضمير تلقائيًا. قد يزيده قدرةً، لكنه لا يحدد له جهة استعمالها. وإذا انفصلت المهارة عن

الأخلاق، أصبحت أكثر خطورة؛ لأن الجاهل قد يفسد بقدر محدود، أما الخبير الذي باع ضميره فيستطيع أن يمنح الباطل دقةً وفاعلية.

قالوا: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾.

فأجابهم فرعون بشيئين تحتاج إليهما النفوس الضعيفة: المال والمكانة.

﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾.

فالقرب من السلطان قد يكون أكثر إغراءً من المال؛ إذ يمنح صاحبه شعورًا بأنه خرج من جمهور الناس وصار من أهل الأبواب الخاصة. والطاغية يعرف كيف يشتري النفوس: يعطي بعضها مالًا، وبعضها لقبًا، وبعضها كرسيًا قريبًا منه، وبعضها وهمًا بأنها شريكة في القرار.

لكن قربهم من فرعون كان سيبعدهم عن أنفسهم، حتى جاءت الآية فأعادتهم إليها.

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ۝ قَالَ أَلْقُوا﴾.

كان موسى ثابتًا؛ لأن المسألة عنده ليست مسابقةً بين مهارتين. هو يعلم أن ما معه آية من الله، وأن ما معهم صناعة بشرية مهما بلغت.

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾.

تصف الآية أدوات صناعة الوهم: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾: غيّروا ما تراه العيون، لا حقيقة الأشياء.

﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾: طلبوا أن يسكن الرعب في نفوسهم.

فالباطل يحتاج غالبًا إلى عنصرين: تضليل الإدراك وإنتاج الخوف. يجعل الناس يرون ما يريد لهم أن يروه، ثم يرهبهم حتى لا يراجعوا الصورة.

والخوف يضخّم الوهم. قد يكون الشيء محدودًا في واقعه، لكن النفس المرتعبة تراه يملأ الأفق. ولهذا تبدأ الحرية الداخلية حين يستعيد الإنسان قدرته على النظر بعيدًا عن التهويل.

﴿وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾.

لم يهوّن القرآن من قوة المشهد. كان سحرًا عظيمًا في بابه، لكن عظمة الباطل النسبية لا تجعله ندًّا للحق. فالقرآن لا يطلب منا أن ننكر قوة الخصم حتى نؤمن بقوة الله؛ بل يدعونا إلى رؤية القوتين في ميزانهما الصحيح.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾.

لم تقل الآية: تلقف حبالهم فحسب، بل: ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾.

إنها تبتلع الإفك الكامن وراء المشهد: الكذب، والتزوير، والتخويف، والصورة المصنوعة.

الحق لا يحتاج دائمًا إلى أن يناقش كل خيطٍ من خيوط الباطل منفردًا؛ قد تأتي حقيقة واحدة فتهدم البناء كله من أساسه. لأن الباطل، مهما اتسعت زخارفه، قائم على فراغ. وما إن تمسّه الحقيقة حتى يعود إلى حجمه الأصلي.

﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

يا لجلال التعبير: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾.

كان الحق ثابتًا في نفسه، لكن لحظة ظهوره الحاسم وقعت أمام العيون، فسقطت إلى جواره جميع المؤثرات. الحق لا يصبح حقًّا بانتصاره؛ إنما يكشف الانتصار ما كان حقًا منذ البداية.

﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

الباطل كثير الحركة، كثير التنظيم، كثير الإنفاق، لكنه يظل باطلًا. كثرة العمل لا تمنح الفكرة شرعيتها، وقد يُنفق الإنسان عمرًا في تشييد بناءٍ لا أساس له.

﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾.

أراد فرعون أن يصغّر موسى أمام الناس، فانقلب مشروعه كله صغارًا. والمكان الذي أعدّه لعرض قوته صار مسرحًا لفضيحته.

وهذه من تدابير الله الخفية: قد يفتح الباطل ساحةً ليعرض تفوقه، ثم يجعلها الله نافذةً يظهر منها عجزه. وما يحشده لمحاصرة الحق قد يصبح هو نفسه وسيلة لانتشاره.

ثم جاء الحدث الذي لم يكن في حساب فرعون: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾.

لم تقل: فسجدوا فقط، بل ﴿أُلْقِيَ﴾، كأن الحقيقة حين دخلت قلوبهم ألقت بأجسادهم على الأرض. لم تكن سجدةً رتبوها، بل استجابةً غلبت كل حساباتهم.

دخلوا الساحة يبحثون عن الارتفاع في عين فرعون، فوجدوا رفعتهم في وضع جباههم على الأرض لله.

إن السجود لله ليس إلغاءً لكرامة الإنسان، بل تحرير لها. حين تسجد لله وحده، تنهض من سجودك عصيًّا على السجود للطغاة. ومن لم يضع جبهته لله وضع قلبه عند أقدام أشياء كثيرة: المال، والناس، والخوف، والشهوة.

﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾.

قبل قليل كانوا يسألون فرعون عن الأجر، والآن يعلنون الإيمان برب العالمين.

ما الذي حدث؟

لقد رأوا ما لا يستطيع غيرهم أن يراه بالدقة نفسها. كانوا خبراء بالسحر، فعرفوا أن ما جاء به موسى ليس من جنس صنعتهم. والمعرفة التي كانت أداةً في يد الباطل أصبحت ـ حين صدقوا معها ـ طريقًا إلى الإيمان.

ليس العلم هو الذي أضلّهم أولًا، بل بيع العلم للمصلحة. فلما تحررت معرفتهم من الأجر الفرعوني، شهدت بالحقيقة.

وأضافوا: ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾.

لئلا يدّعي فرعون أن المقصود برب العالمين هو نفسه أو ما يقرره هو. حددوا ربهم بوضوح: رب موسى وهارون، الذي جاء موسى برسالته في مواجهة فرعون.

الإيمان الحقيقي يملك شجاعة التعيين؛ فلا يكتفي بعبارات غامضة تسمح لكل باطل أن يندرج تحتها.

حين اكتشف فرعون أن القلوب ليست من ممتلكاته

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾.

هذه الجملة تختصر نفسية الطغيان: ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾.

كان فرعون يظن أنه لا يملك أجساد الناس وأعمالهم فقط، بل يملك أبواب قلوبهم أيضًا. لا يحق لهم أن يؤمنوا حتى يأذن، ولا أن يصدقوا ما رأته أعينهم قبل أن تصادق السلطة على الحقيقة.

الطاغية لا يزعجه أن يخطئ الناس بقدر ما يزعجه أن يختاروا خارج سلطانه. فهو لا يريد مؤيدين فحسب؛ يريد ذواتًا ممسوحة الإرادة، تنتظر منه الإذن لتفكر وتشعر وتؤمن.

لكن السحرة سجدوا قبل الإذن، وفي تلك السجدة سقط أعمق أركان الحكم الفرعوني: احتكار الضمير.

قد يملك الطاغية أن يسجن الجسد، لكنه يعجز عن إعادة قلبٍ عرف الله إلى القفص القديم.

ثم سارع فرعون إلى صناعة الرواية البديلة: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

قبل لحظات كان السحرة ممثلي الدولة وخبراءها، فلما آمنوا أصبحوا متآمرين!

الطغيان لا يعرف ولاءً حقيقيًا؛ من خدمه فهو وطني ومقرب، فإذا خالفه في لحظة ضمير صار خائنًا. فالقيمة عنده ليست في الحقيقة، بل في مقدار الطاعة.

ولم يناقش فرعون سبب سجودهم، بل اتهمهم بالمكر. لأن الاعتراف بأن الخبراء أنفسهم شهدوا لموسى يهدم موقعه، فاحتاج إلى تحويل الإيمان إلى مؤامرة سياسية.

إن أسهل وسيلة للهروب من الحقيقة هي التشكيك في دوافع قائلها. بدل أن تسأل: هل قوله صحيح؟ تقول: ماذا يريد؟ من دفعه؟ لأي جهة يعمل؟

قد تكون النيات محل بحث، لكن فساد نية المتكلم ـ لو ثبت ـ لا يكفي وحده لإبطال حقيقة كلامه، كما أن حسن نيته لا يحول الخطأ صوابًا.

ثم كشف فرعون عن السلاح الأخير للطغيان: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

حين سقط سحر الخطاب ظهر عنف السلطة عاريًا. فالباطل يبدأ بالإغراء، ثم ينتقل إلى التشويه، فإذا فشلا أخرج أدوات القمع.

قبل إيمانهم قال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾، وبعد إيمانهم قال: ﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾. والمسافة بين القرب والصلب في قاموس الطاغية ليست إلا كلمة «لا».

ما دام الإنسان تابعًا فهو قريب، فإذا استعاد ضميره صار عدوًا.

من سؤال الأجر إلى استقبال الشهادة

كان جواب السحرة: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾.

لم يقولوا إنك لا تستطيع قتلنا. كانوا يعلمون أنه يستطيع تعذيب أجسادهم، لكنهم نقلوا المشهد كله من سلطان فرعون إلى سلطان الله.

﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾.

بمجرد أن حضرت الآخرة في وعيهم، تغير حجم فرعون. صار تهديده قادرًا على إنهاء حياة قصيرة، لكنه عاجز عن التحكم فيما بعدها.

وهذه هي القوة التي تصنعها الآخرة في النفس: لا تلغي الخوف الطبيعي من الألم، لكنها تمنع الخوف من أن يصبح إلهًا يُطاع. من رأى الموت بوابةً إلى الله لم يعد الطاغية يملك الورقة الأخيرة.

ثم قالوا: ﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾.

كشفوا حقيقة الجريمة في ميزان فرعون: أنهم آمنوا. لم يسرقوا، ولم يقتلوا، ولم يخونوا الوطن؛ كل ما فعلوه أنهم صدقوا الآية حين رأوها.

فالاستبداد لا يعاقب الإنسان على فسادٍ ارتكبه، بل على ضميرٍ لم يستطع احتواءه.

ثم لجؤوا إلى الدعاء: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾.

لم يسألوا الله أن يزيل البلاء أولًا، بل أن يمنحهم ما يثبتون به داخله. وهذه درجة عالية من الفقه بالله: فقد تتغير

الظروف، وقد لا تتغير، لكن النصر الحقيقي أن لا يتغير قلبك عن الحق.

﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾.

الإفراغ يوحي بصبرٍ يغمرهم من فوقهم، حتى لا تبقى في أرواحهم ثغرة يدخل منها الجزع. كانوا يعلمون أن طاقتهم البشرية وحدها لا تكفي لمواجهة التقطيع والصلب، فطلبوا مددًا من الله يساوي هول اللحظة.

﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾.

منذ دقائق كانوا سحرةً يخدمون فرعون، والآن صار أعظم همهم حسن الخاتمة. ما أسرع ما يقطع الصدق مسافاتٍ لا تقطعها سنوات من التردد!

ليس المعتبر طول الطريق الذي مشيته إلى الله، بل صدق الوجهة حين أقبلت عليه.

الفصل السادس عشر

الطاغية والملأ

صناعة الخوف وإدارة الاستعباد

بعد إيمان السحرة، أدرك ملأ فرعون أن المسألة لم تعد مواجهةً بين موسى والسحرة؛ فقد بدأت الحقيقة تنتقل إلى المجال العام.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾.

سمّوا دعوة موسى فسادًا، مع أن فرعون هو الذي استعبد الناس وسفك الدماء. وهذه إحدى أخطر حيل السلطة الفاسدة: أن تجعل بقاء الظلم هو النظام، ومحاولة تغييره هي الفوضى.

حين يطول عمر الباطل، يصير وجوده مألوفًا، فيبدو خلخلته إفسادًا. أما الضحايا الذين يطالبون بحقوقهم فيُتهمون بأنهم يعكرون الاستقرار.

والملأ لا يخشون فساد الأرض حقيقةً؛ إنهم يخشون تغير ترتيبها الذي وضعهم في القمة. فكثير مما يسمّى دفاعًا عن النظام ليس إلا دفاعًا عن الامتيازات.

ثم قالوا: ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾.

إنهم يحرضون فرعون باستثارة نرجسيته: كيف تترك رجلًا لا يعترف بسلطانك الأعلى؟ فالطغيان يحتاج إلى ملأ يوقظ مخاوفه، ويضخم الأخطار، ويدفعه إلى مزيد من القمع؛ لأن بقاءهم مرتبط ببقائه.

الطاغية يصنع الملأ، ثم يصنع الملأ طغيانه كل يوم.

قال فرعون: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾.

عاد إلى أقدم سياسات الاستعباد: ضرب المستقبل بقتل الأبناء، وإذلال المجتمع باستبقاء النساء في حال قهرٍ واستضعاف.

﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾.

العلو عند فرعون هو القدرة على الإيلام. لا يعرف معنى القوة بوصفها حمايةً أو عدلًا، بل بوصفها وضع القدم فوق الضعيف.

غير أن كلمة ﴿فَوْقَهُمْ﴾ تحمل غرورًا مؤقتًا؛ ففوق فرعون رب العالمين، وفوق كل قوة بشرية سلطان لا تبلغه.

الطغاة يرون من تحت أقدامهم، وينسون من فوق سلطانهم.

الاستعانة والصبر: بناء النفس قبل تحرير الأرض

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

لم يعدهم موسى بانتصار سريع، ولم يقل إن الطريق سيكون بلا دموع. أعطاهم زاد مرحلتين: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾.

الاستعانة تصحح مصدر القوة، والصبر يحفظ الحركة حتى يأتي الأجل. من استعان بلا صبر قد يطلب معجزةً تعفيه من الطريق، ومن صبر بلا استعانة قد يتحول صبره إلى قسوة على النفس واعتماد عليها.

أما اجتماعهما فيصنع المؤمن الذي يعمل طويلًا وقلبه موصول بالله.

ثم قال: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ﴾.

قال فرعون ضمنًا: الأرض لي. وقال الملأ عن القرية من قبل: قريتنا. أما موسى فأعاد الملكية إلى أصلها: الأرض لله.

ليست الأرض إرثًا أبديًا لطاغية، ولا وثيقةً مسجلة باسم قوةٍ عابرة. إنها لله، يداول أيامها ويغيّر أهل سلطانها.

﴿يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾.

لكن الوعد لا يعني أن كل مستضعف يستحق التمكين لمجرد استضعافه؛ فالاستضعاف قد يكسر القيد الخارجي، ولا يطهر بالضرورة أمراض النفس. لا بد من تربية تجعل المظلوم، إذا امتلك القوة، مختلفًا عن ظالمه.

ولهذا ختم: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

ليست العاقبة للأكثر غضبًا، ولا للأعلى صوتًا، ولا للأمهر في الانتقام، بل للمتقين؛ الذين لا يسمحون لظلم خصمهم أن يحولهم إلى نسخة منه.

لكن بني إسرائيل قالوا: ﴿أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾.

هذه صرخة نفسٍ أنهكها الانتظار. كانوا يتوقعون أن مجيء الرسول يعني نهاية الألم فورًا؛ فإذا بالأذى يشتد.

وكأنهم يقولون: ما الذي تغيّر؟ كنا نُعذب قبل الرسالة، وها نحن نُعذب بعدها.

وهذا سؤال يتكرر في طريق الإيمان: لماذا يزداد البلاء حين نختار الحق؟ لأن الباطل قد يتعايش مع الإيمان الصامت، لكنه يستنفر حين يتحول الإيمان إلى مشروع تحرر. ازدياد المقاومة لا يعني أن الطريق خطأ؛ قد يعني أنك اقتربت من موضع القيد الحقيقي.

لم يوبخهم موسى بقسوة، بل أعادهم إلى أفق الرجاء: ﴿قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

لم يقل: فيستخلفكم لأنكم الأفضل على كل حال، بل قال: ﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

فالتمكين ليس نهاية الامتحان؛ بل انتقال إلى امتحان أشد. في الاستضعاف يُختبر صبرك، وفي التمكين يُختبر عدلك. وقد ينجح الإنسان مظلومًا ثم يفشل حين يصير قادرًا.

من السهل أن تلعن طغيان فرعون وأنت تحت سوطه، لكن السؤال: ماذا ستفعل حين تصبح العصا في يدك؟

إن تحرير الأرض أسرع أحيانًا من تحرير النفس. قد يخرج الشعب من قصر الطاغية، ويبقى الطاغية الصغير مختبئًا في داخله: في طريقة إدارته للخلاف، وفي احتقاره للضعفاء، وفي شهوته للامتياز.

ولهذا لا يمنح القرآن صك البراءة الدائم للضحايا؛ بل ينقلهم من سؤال الظلم الواقع عليهم إلى سؤال العدل الذي سيصدر عنهم.

التنبيهات التي قرأها فرعون بوصفها حوادث

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

جاءتهم سنوات الجدب ونقص الثمرات. كان يمكن للأزمة أن تفتح نافذة للمراجعة: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

لكن السلطة المغلقة لا تعترف بخطئها؛ لأنها بنت هيبتها على دعوى العصمة. فإذا جاءت الأزمة بحثت عن شماعة، لا عن مرآة.

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾.

إذا جاء الرخاء قالوا: نستحقه، وهو ثمرة قوتنا. وإذا جاءت الشدة قالوا: سببها موسى والمؤمنون.

النجاح ينسبونه إلى أنفسهم، والفشل يلقونه على خصومهم. وهذه نفسية لا تتعلم؛ لأنها تحتكر الفضل وتوزع المسؤولية.

كم من فردٍ أو جماعة يفعل ذلك: إذا أصاب أحسن قال أنا، وإذا أخفق قال هم. فيعيش عمره بلا مراجعة؛ لأن المرآة عنده لا تعكس إلا فضائله، والنافذة لا تُريه إلا أخطاء الآخرين.

فقال الله: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

مصائرهم ليست معلقةً بخرافاتهم، ولا بموسى، بل بقدر الله وأعمالهم التي يحاسبهم عليها.

ثم أعلنوا إغلاقهم الكامل أمام البرهان: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

هذه ليست نتيجة بحث، بل قرار سابق على كل دليل: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا﴾.

لقد حسموا أنهم لن يؤمنوا، ثم صاروا يعيدون تفسير كل آية بما يخدم القرار. فإذا قرر القلب النتيجة قبل النظر، لم تعد الأدلة جسورًا إلى الحقيقة، بل مواد يعيد تشكيلها لحماية موقفه.

وما أكثر من يقول: أقنعني، وهو يعني في داخله: لن أقتنع. لا يبحث عن الحقيقة، بل عن ثغرة تمنحه حق البقاء حيث هو.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾.

جاءت الآيات متتابعةً مفصلة، لا حادثةً ملتبسة واحدة: طوفان، وجراد، وقمّل، وضفادع، ودم.

ضُربت عناصر حياتهم: الماء، والزراعة، والطعام، والراحة. الأشياء التي كانت تخدمهم خرجت عن النظام الذي ألفوه، لتعلن أن فرعون لا يملك مصر كما يدّعي. لم يستطع أن يأمر الجراد بالعودة، ولا الضفادع بالمغادرة، ولا الماء أن يعود ماءً نافعًا.

الطاغية الذي يزعم السيطرة على البشر ظهر عاجزًا أمام أصغر جنود الله.

﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾.

لم تكن المشكلة قلة الآيات، بل الكبر الذي يحول كل آية إلى سبب لمزيد من العناد. وإذا بلغ القلب هذه الحال، قد تزيده المعجزة عمًى؛ لأنه يرى فيها تهديدًا لذاته لا هدايةً لها.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

عند الألم عرفوا الطريق إلى موسى. لكنهم قالوا: ﴿رَبَّكَ﴾، لا ربنا؛ فما زالت المسافة قائمة في قلوبهم.

ووعدوا وعدًا كاملًا: إيمان، وتحرير بني إسرائيل. فالإنسان في الشدة يَعِد بما يبدو صادقًا لحظتها، لكن صدق الاضطرار لا يساوي دائمًا صدق الاختيار.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾.

ما إن زال الألم حتى عاد القلب إلى صورته القديمة. كان الدعاء عندهم وسيلةً للخروج من الأزمة، لا طريقًا للخروج من الكفر.

إن بعض الناس يريد من الله أن يغيّر ظروفه، لكنه لا يريد أن يغيّر نفسه. فإذا رُفع البلاء، رفع معه تضرعه، وعاد إلى ما كان عليه؛ كأن الله كان باب طوارئ لا رب الحياة كلها.

والوفاء الحقيقي يظهر بعد الإجابة. أما الكلمات التي تقال تحت ضغط الألم، فيختبر صدقها أول يوم من العافية.

﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾.

انتهت القصة بالماء. ذلك الماء الذي جرى تحت سلطان فرعون، وصنع لمصر قوتها، صار الجند الذي طوى ملكه.

لم يقل النص إنهم أُخذوا بلا سبب، بل: ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾.

التكذيب قرار، والغفلة حالة استقرت حتى غطت القلب. والغفلة هنا ليست عدم المعرفة، فقد رأوا الآيات، بل الإعراض عن دلالتها والعيش كأنها لم تكن.

لقد غرق فرعون في البحر بعد أن غرق طويلًا في وهمه. وكان الغرق المادي آخر صورةٍ لغرقٍ داخلي بدأ يوم ظن أنه فوق الحق.

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾.

الذين كانوا لا يملكون أمر أجسادهم صاروا ورثة الأرض. والذين قتل فرعون أبناءهم خوفًا من المستقبل أصبح المستقبل لهم.

﴿بِمَا صَبَرُوا﴾.

لم يذهب الألم هباءً. كل ليلة خوف، وكل أم فقدت ولدها، وكل ظهرٍ انحنى تحت السخرة؛ كان معلومًا عند الله. وقد تتأخر ثمرة الصبر حتى يظن الإنسان أن التاريخ نسيه، لكن الله لا ينسى.

ثم قال: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾.

صنع فرعون كثيرًا، وبنى ورفع، لكن البناء الذي لا يحمل معنى العدل يحمل بذرة تدميره في داخله. قد يبقى أثر حجريّ للطاغية، لكن مشروعه الذي ظنه خالدًا ينتهي.

وهنا تكتمل دورة التحرير من الخارج: سقط فرعون، وعبر بنو إسرائيل، وورث المستضعفون الأرض.

لكن السورة ستكشف المفاجأة المؤلمة: أن الخروج من أرض العبودية لا يعني خروج العبودية من النفس. فما إن

عبر القوم البحر ورأوا قومًا يعكفون على أصنام لهم، حتى قالوا لموسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾.

لقد نجت أجسادهم من فرعون، لكن صورة الصنم ما زالت تبحث عن مكانٍ في قلوبهم. وهنا تبدأ المعركة الأصعب: ليست مع طاغيةٍ أمامهم، بل مع آثار الطغيان المختبئة في داخلهم.

الفصل السابع عشر

ما بعد العبور

حين يخرج الجسد وتبقى العبودية في النفس

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾.

يا لهول المفارقة!

البحر الذي غرق فيه فرعون ما يزال قريبًا، وآثار المعجزة لم تجف بعدُ من الذاكرة، ومع ذلك طلبوا صنمًا.

لقد رأوا قبل قليل كيف عجز فرعون وجنوده عن إنقاذ أنفسهم، ورأوا البحر ينفلق بأمر الله، ثم استوقفهم أول مشهد وثني رأوه بعد العبور، فاشتهوا أن يكون لهم مثله.

وهنا تكشف السورة أن العين قد ترى المعجزة، بينما يظل القلب مشدودًا إلى عاداته القديمة. فالمشاهدة وحدها لا تبني الإيمان إذا لم يصحبها تطهير عميق للوعي.

لقد عاش بنو إسرائيل طويلًا في بيئة وثنية فرعونية، حتى تسربت صورها إلى نفوسهم. كانوا يكرهون فرعون لأنه عذبهم، لكنهم لم يتحرروا تمامًا من طريقته في تصور القداسة والقوة.

وهذا من أدق قوانين التحرير: قد يرفض المظلومُ الظالمَ، لكنه يحتفظ في داخله بثقافة الظالم. يكره السوط لأنه وقع على ظهره، لا لأنه يرفض منطق السوط؛ فإذا امتلكه ربما أعاد استعماله.

الخروج من المكان يحدث بخطوة، أما الخروج من أثره فيحتاج إلى تربية طويلة.

قالوا: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾.

لم يسألوا: هل ما عليه هؤلاء حق؟ بل أغراهم أن للآخرين شيئًا ظاهرًا يجتمعون حوله. أرادوا دينًا يُرى بالعين ويُمسّ باليد، لأن الإيمان بالغيب يحتاج إلى قلبٍ تجاوز أسر المحسوس.

والتقليد هنا لم ينشأ من قوة الحجة، بل من ضغط المشهد: ﴿كَمَا لَهُمْ﴾.

كم تحمل هذه الكلمة من ضعف! نريد شيئًا لأن غيرنا يملكه. لا نسأل عن حقيقته، بل عن شعورنا بالنقص حين نراه في أيديهم.

قد تستورد أمةٌ أفكارًا وأنظمةً ورموزًا، لا لأنها اختبرتها بميزان الحق، بل لأنها تخجل أن تبدو مختلفة. يصبح «كما لهم» أقوى من سؤال: «ماذا يريد الله لنا؟».

إن الهزيمة الثقافية تبدأ حين يرى الإنسان ما عند غيره أكبر لمجرد أنه عند غيره.

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

الجهل هنا ليس نقص معلومات فحسب، بل اختلال في رؤية الحقيقة. لقد عرفوا أن الله نجاهم، لكنهم لم يعرفوا مقتضى هذه النجاة: أن يعبدوه وحده.

قد يحفظ الإنسان قضايا التوحيد، ثم يتعلق قلبه بالأسباب والأشخاص تعلقًا يناقض ما يحفظ. فالمعرفة التي لا تعيد ترتيب الولاءات تظل معرفةً ناقصة الأثر.

ثم قال موسى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

لا تنخدعوا بجمال المشهد أو كثرة العاكفين. ما هم فيه هالك، وما يعملون باطل، وإن بدا منظمًا مهيبًا.

فالباطل قد يملك معابد، وطقوسًا، وجموعًا، وتاريخًا طويلًا، لكنه يظل باطلًا. الصورة لا تمنح المعبود حقيقة، والحشد لا يمنحه سلطانًا.

ثم أعاد موسى السؤال إلى موضعه: ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

كيف تبحثون عن معبود بعد أن عرفتم الله؟ وكيف تستبدلون بالذي شق لكم البحر حجرًا لا يسمع ولا يبصر؟

إن الشرك ليس مجرد خطأ في الاختيار، بل هبوط هائل في مقام الإنسان. خلقه الله عاقلًا مكرمًا، ثم ينحني لما هو أدنى منه.

والتوحيد لا يرفع قدر الله ـ فالله غني عن العالمين ـ وإنما يرفع الإنسان من عبودية الأشياء.

﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

أعادهم موسى إلى ذاكرة الألم والنجاة. فالذاكرة هنا ليست لاستدامة الجرح، بل لحماية المعنى الذي ولد منه.

تذكّروا من أنقذكم، حتى لا تمنحوا ولاءكم لصنم. وتذكروا العبودية، حتى لا تعيدوا بناءها بأيديكم.

لكن الشعوب قد تنسى الألم بعد زواله، ثم تعود إلى الأسباب التي أنتجته. تتحول الذكرى إلى احتفال، بدل أن تكون ميزانًا يمنع التكرار.

إن الوفاء للضحايا لا يكون برفع صورهم فقط، بل ببناء واقع لا يصنع ضحايا جددًا.

الفصل الثامن عشر

ميقات موسى

حين تتهيأ الروح لسماع الكلام

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾.

خرج موسى من صخب المواجهة مع فرعون إلى خلوة الميقات. وبعد معركة التحرير الخارجي جاءت لحظة البناء الداخلي وتلقي الشريعة.

﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾.

للرسالة أثقال تحتاج إلى تهيئة، وللقرب مواعيد تفرغ فيها الروح من ضجيج العالم. فالإنسان الذي لا يختلي بنفسه يظل مكوّنًا من أصوات الآخرين؛ لا يسمع أعماقه ولا يميز ما تراكم فيها.

وليس المقصود الهرب من الحياة؛ فموسى الذي اعتزل للميقات هو نفسه الذي واجه فرعون. الخلوة الصادقة لا تصنع إنسانًا ينسحب من واجبه، بل تعيده إليه بقلبٍ أكثر صفاء.

إن العمل بلا خلوة قد يتحول إلى حركةٍ جوفاء، والخلوة بلا عمل قد تتحول إلى راحة أنانية. أما النبوة فتجمع محراب الروح وميدان الرسالة.

وقبل ذهابه قال موسى لأخيه: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

القيادة ليست ترك فراغٍ خلفك، بل إعداد من يحمل الأمانة عند غيابك. ومع ذلك اختصر موسى مهمة هارون في كلمتين: ﴿وَأَصْلِحْ﴾، و﴿لَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

الإصلاح لا يكون فقط بمواجهة الفساد الصريح، بل بعدم اتباع سبيله. فقد يبدأ المصلح بمقاومة المفسدين، ثم يستعير

أدواتهم: يكذب كما يكذبون، ويظلم كما يظلمون، ويبرر ذلك بخدمة القضية.

لكن الطريق الفاسد لا يحمل إلى غاية صالحة. والوسيلة ليست وعاءً محايدًا؛ تترك أخلاقها في النتيجة.

سؤال الرؤية وشوق القرب

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾.

كلّمه الله كلامًا حقيقيًا يليق بجلاله، ليس كمثله شيء. ولما ذاق موسى شرف الكلام اشتاق إلى مقام الرؤية، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾.

إنها رغبة المحب الذي امتلأ قلبه شوقًا، لا سؤال الشاك الذي يطلب برهانًا. موسى الذي واجه فرعون باليقين لم يكن يبحث عن دليل على وجود الله، بل عن زيادة قرب.

فقال سبحانه: ﴿قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾.

لم تكن طبيعة موسى البشرية في الدنيا مهيأة للرؤية. وجعل الله الجبل ـ بما فيه من صلابة وثبات ـ ميدانًا يُظهر عجز المخلوق عن احتمال التجلي.

﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾.

نتوقف عند النص كما جاء، مؤمنين به من غير تكييفٍ ولا تمثيل؛ فالله سبحانه متعالٍ عن مشابهة خلقه. تجلّى للجبل تجليًا يليق بجلاله، فاندك الجبل، وخرّ موسى مغشيًا عليه.

الجبل الذي يبدو للإنسان رمز الثبات لم يحتمل. فكيف بالجسد البشري الضعيف؟

وهنا تصل اللغة إلى مقام السجود أمام المعنى. لا تستطيع العبارة أن تحيط بجلال المشهد؛ جبل ينهار، ونبي يصعق،

والوجود كله يعلن عجز المحدود عن الإحاطة بجلال غير المحدود.

﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أول كلمة بعد الإفاقة: ﴿سُبْحَانَكَ﴾.

التنزيه هو أول ما يليق بالمقام. يا رب، تنزّهت عن أن يحيط بك نظر أو وصف، وتنزهت صفاتك عن مشابهة صفات المخلوقين.

ثم قال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾؛ أي رجعت عن السؤال الذي لم يُؤذن له فيه، وأعلن تمام خضوعه.

إن القرب الحقيقي يزيد العبد تواضعًا. كلما عرف من عظمة الله شيئًا، صغرت نفسه في عينه من غير أن تهون كرامته. أما المعرفة التي تزيد صاحبها غرورًا، فلم تدخل بعد إلى قلبه؛ لقد توقفت في لسانه أو عقله.

الاصطفاء الذي يتحول إلى شكر

﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

الاصطفاء ليس تاجًا للزهو، بل تكليف للشكر.

﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾.

لا تظل مشغولًا بما لم تُعطَ من الرؤية في الدنيا عن عظمة ما أُعطيت من الرسالة والكلام. وهنا تربية رفيعة للنفس: لا تجعل بابًا أُغلق يحجب عنك أبوابًا كثيرة فُتحت.

الإنسان ينظر أحيانًا إلى النعمة الناقصة في تقديره، فينسى النعم المكتملة في واقعه. يظل يسأل: لماذا لم أحصل على هذا؟ حتى يفقد لذة ما حصل عليه.

﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

الشكر يعيد العين إلى العطاء، ويحوّل الاصطفاء من امتياز شخصي إلى عبودية. فالعلم لا يُشكر بالتعالي، بل بالتبليغ.

والقوة لا تُشكر بالاستبداد، بل بالحماية. والموهبة لا تُشكر بصناعة تمثال الذات، بل بخدمة الحق.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾.

الشريعة موعظة وتفصيل: تحيي القلب، وتنظم الحياة. فالقانون إذا انفصل عن الموعظة قد يتحول إلى نظامٍ بارد يُتحايل عليه، والموعظة إذا انفصلت عن التفصيل قد تبقى عاطفةً لا تبني مجتمعًا.

﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾.

الحق يحتاج إلى قلبٍ جاد؛ لا يؤخذ بأطراف الأصابع ولا يُحمل وقت الفراغ. والأخذ بالقوة ليس عنفًا على الناس، بل قوة في التلقي والالتزام والثبات.

كم من فكرة عظيمة أفسدها التلقي الرخو! يعجب الإنسان بالوحي، لكنه لا يمنحه حق تغيير عاداته. يقرأ الأمر كاقتراح، والحد كمساحة تفاوض، ثم يظن أنه حمل الرسالة.

أخذ الكتاب بقوة أن تسمح له بأن يصادم فيك ما يحتاج إلى الإصلاح.

﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ۝ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾.

مرةً أخرى يظهر الكبر بوصفه حجابًا عن الآيات.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ﴾.

قد يرى المتكبر الآية بعينه، لكن يُصرف عن فقهها والانتفاع بها جزاء إصراره. فهو لم يطلب الحقيقة ليتبعها، بل طلب ما يؤكد تفوقه.

ثم تصف الآية اختلال اختياره: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾.

لم تعد المشكلة غياب الطريق، بل انقلاب الذائقة الأخلاقية: يرى الرشد فلا يرغب فيه، ويرى الغي فينجذب إليه.

والقلب لا يصل إلى هذه الحال فجأة. كل رفض صغير للحق يضعف قابليته له، وكل اتباع للهوى يجعل الغي أكثر ألفة، حتى ينتهي الإنسان إلى أن يحب ما يهلكه ويثقل عليه ما ينجيه.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ۝ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

قد تكون لهم أعمال ضخمة في ظاهر الدنيا، لكنها بلا أصل إيماني يربطها بالله والآخرة. والعمل إذا انقطع عن الغاية الكبرى فقد يثمر أثرًا دنيويًا، لكنه لا يبني لصاحبه نجاةً أخروية.

﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ليس في الجزاء ظلم؛ إنما هو عودة العمل إلى صاحبه في صورته الأخيرة. لقد صنع الإنسان عاقبته باختيارات متكررة، ثم لقي ما صنع.

الفصل التاسع عشر

العجل

حين يصنع الإنسان معبوده ثم يخضع له

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ﴾.

ما إن غاب موسى للميقات حتى خرج المرض الكامن. لقد طلبوا من قبل إلهًا كما للآخرين آلهة، وها هم يصنعونه بأيديهم.

﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾.

تحولت الزينة إلى وثن. والشيء الذي خُلق ليُستعمل صار معبودًا. وهكذا تبدأ الوثنية حين ينتقل شيء من اليد إلى القلب، ومن دائرة الوسيلة إلى مقام الغاية.

قد لا يعبد الإنسان اليوم عجلًا من ذهب، لكنه قد يعبد الذهب نفسه؛ لا بالسجود الجسدي، بل بأن يجعل أوامره فوق أوامر

الله، ويقيس قيمته وقيمة الناس به، ويضحي لأجله بدينه وكرامته.

كل شيء يملك القرار الأعلى في قلبك يقترب من معنى الوثن، وإن لم تمنحه اسم الإله.

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾.

العجيب أن بطلان العجل كان ظاهرًا: ﴿لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾.

له صوت بلا معنى؛ خوار يُسمع، لكنه لا يحمل كلمة هداية. وكم من أصنام معنوية تملك الضجيج نفسه! أصواتها تملأ الفضاء، لكنها لا تجيب الإنسان عن غايته، ولا تهديه عند مفترق المصير.

الصوت العالي ليس دليل حياة، والانتشار ليس دليل حق. قد يملأ الباطل الأسماع، لكنه يظل عاجزًا عن أن يمنح القلب طريقًا.

لقد صنعوا العجل، ثم نسوا أنهم صنعوه. وهذه آلية وثنية متكررة: يصنع المجتمع رمزًا أو زعيمًا أو تقليدًا، ثم يمنحه مع الزمن سلطةً فوق النقد، حتى يخضع الصانع لما صنعت يداه.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

حين انكشف الوهم، سقط الندم في أيديهم؛ كأنهم حاولوا أن يمسكوا ما فات فلم يجدوا إلا الحسرة.

لكن اعترافهم يحمل بداية العودة: ﴿رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾.

لا يمكن للإنسان أن يخرج من الضلال حتى يراه ضلالًا. وطالما ظل يسمي العجل إلهًا، فلن يفكر في تحطيمه. لذلك تبدأ كل توبة باستعادة الأسماء الصحيحة للأشياء.

ثم عادوا إلى الكلمة التي قالها آدم: ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وكأن السورة تضع أمام كل خطيئة طريقين: طريق إبليس الذي يبرر، وطريق آدم الذي يعترف ويرجو الرحمة. والذي يحدد المصير ليس وقوع الزلة وحده، بل الموقف الذي يتخذه القلب بعدها.

غضب موسى: الغضب للحق وحدود الحكم

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾.

عاد موسى من مقام الكلام بالألواح، فوجد قومه حول العجل. ما أعظم المسافة بين المشهدين: نبي يتلقى كلمات الله، وقوم يعبدون جسدًا له خوار.

كان غضبه لله، وأسفه على سرعة انقلابهم. لكن شدة الصدمة دفعته إلى أخذ رأس أخيه، ظانًّا أنه قصّر في منعهم.

فقال هارون: ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

قال: ﴿ابْنَ أُمَّ﴾ ليستدعي عاطفة الأخوة في لحظة الغضب. ثم بيّن حقيقة موقفه: قاوم، لكن القوم استضعفوه وكادوا يقتلونه.

وهنا نتعلم أن الحماسة للحق لا تعفي من التثبت. قد يغضب الإنسان غضبًا مشروعًا، لكنه يضعه في الموضع الخطأ، فيؤذي بريئًا ويترك الفاعل الحقيقي.

ليس كل من كان حاضرًا عند الفتنة شريكًا فيها، ولا كل من عجز عن منع المنكر راضيًا به. فلا بد من معرفة القدرة والجهد والظروف قبل إصدار الحكم.

والعدل عند الغضب أصعب، ولذلك هو أصدق امتحان للعدل.

فلما تبين لموسى عذر أخيه، لم يمنعه مقام النبوة من الرجوع إلى الدعاء:

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

لم يبرر اندفاعه، ولم ير الاعتذار نقصًا من هيبته. عظماء الإيمان لا يحتاجون إلى حماية صورة العصمة عن الخطأ؛ يكفيهم أن يكونوا صادقين في الرجوع إلى الله.

وبدأ بنفسه ثم أخيه: ﴿اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾.

الدعاء أعاد الأخوة بعد توتر اللحظة، وأدخل الموقف كله في سعة الرحمة.

ما أجمل أن تنتهي الخصومات الصادقة بالدعاء، لا بإبقاء الجرح مفتوحًا لتغذية الكبر!

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾.

طلبوا العزة في معبود يرونه، فكانت النتيجة ذلة. فكل عبودية لغير الله تنتهي إلى إنقاص الإنسان.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾.

الافتراء صناعة حقيقة زائفة ثم مطالبة الناس بالخضوع لها. وقد يكون العجل نموذجًا لكل باطل صنعه البشر، ثم نسبوا إليه قدرةً أو قداسةً لا يملكها.

لكن بعد الوعيد يأتي باب الرحمة: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾: بعد السيئات، وبعد الضلال، وبعد عبادة العجل. لا توجد خطيئة أكبر من رحمة الله إذا صدقت التوبة.

إن القرآن لا يهوّن من الجريمة، لكنه لا يسمح للجريمة أن تتحول إلى إله آخر يقول للإنسان: لا تستطيع الخروج من سلطاني.

رحمة الله أوسع من ماضيك، لكنها تطلب منك أن تترك المعبود الكاذب وتعود.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾.

صوّر الغضب كأنه صوت كان يتكلم داخل موسى، ثم سكت. وما أبدع التعبير؛ فالغضب حين يشتد يملأ الداخل ضجيجًا، فلا يسمع الإنسان إلا تفسيرًا واحدًا، ولا يرى إلا زاويةً واحدة.

فلما سكت الغضب عاد موسى إلى الألواح.

وهكذا ينبغي أن نفعل: لا نتخذ القرارات الكبرى بينما الغضب يتكلم. ننتظر حتى يسكت، ثم نعود إلى الكتاب والميزان.

﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾.

حتى بعد فتنة العجل بقي الكتاب هدى ورحمة. خطيئة الناس لا تغير طبيعة الوحي، وسوء تطبيقهم لا ينتقص من كماله.

وإذا فشل أتباع الرسالة، فالعلاج ليس مغادرة الرسالة، بل العودة الصادقة إليها.

الفصل العشرون

السبعون المختارون

حين تتسع الرحمة لما أفسدته الفتنة

﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾.

اختار موسى سبعين رجلًا، لكن الاختيار البشري لا يكشف كل خفايا النفوس. وجاءت الرجفة، فظهر موسى في مقام المسؤول عن قومه، يحمل خوف الجماعة إلى باب الله.

﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾.

إن خطيئة السفهاء قد تمتد آثارها إلى المجتمع كله؛ لأن الناس لا يعيشون جزرًا منفصلة. الفساد إذا تُرك يكبر، ثم يدفع ثمنه من شارك ومن سكت ومن عجز.

لكن موسى لا يعترض على حكم الله، بل يتضرع، عالمًا أن الأمر كله إليه: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾.

أي إن هذا الابتلاء امتحان منك، يظهر به ما في القلوب؛ والله يهدي من شاء بعدله وفضله، ويخذل من أعرض واستحق الخذلان. وليس في مشيئته سبحانه ظلم لأحد.

ثم قال: ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾.

بعد تجربة الأصنام والولاءات الكاذبة، يعلن موسى الولاية الحقيقية: ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا﴾.

أنت الذي نتولاك، ونستعين بك، ونرجع إليك. لا العجل، ولا فرعون، ولا القوة، ولا الأكثرية.

ومن عرف وليه عرف أين يذهب بضعفه. لا يخفي ذنبه، بل يقول: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾.

ثم دعا موسى: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾.

أي رجعنا وتبنا إليك.

جمع بين حسنة الدنيا وحسنة الآخرة؛ فالإيمان لا يطلب خراب الدنيا، بل يريد خيرها موصولًا بخير الآخرة. يريد عافيةً تعين على الطاعة، ورزقًا طيبًا، وعدلًا، وطمأنينة، ثم رضوان الله في النهاية.

فجاء الجواب: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

ما أوسع العبارة: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

الوجود كله قائم في سعة الرحمة: الخلق، والرزق، والإمهال، وإرسال الرسل، وفتح باب التوبة. حتى العاصي يعيش بنعمة الله وهو يعصيه، ويُمنح وقتًا يعود فيه.

لكن الرحمة الخاصة في الآخرة لها طريق: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾.

الرحمة واسعة، وليست كلمةً تُستعمل لإلغاء المسؤولية. من أرادها سار إليها بالتقوى، وطهّر ماله بالزكاة، وفتح قلبه للآيات.

فالرجاء الحقيقي يحرّك القدم، أما الرجاء الذي يبرر الإقامة في المعصية فليس رجاءً، بل أمنية مخدّرة.

ثم امتد الوعد إلى الرسالة الخاتمة: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾.

انتقلت الآية من دعاء موسى إلى ذكر محمد ﷺ، فكأن موكب النبوة سلسلة واحدة، يسلّم أولها إلى آخرها. الرسالات ليست جزرًا متنازعة؛ مصدرها واحد، وغايتها واحدة: إخراج الإنسان من عبودية الخلق والهوى إلى عبودية الله.

ثم وصفت رسالة النبي ﷺ بأفعالها في الحياة: ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

الرسالة معرفة أخلاقية: معروف ومنكر. وطهارة في المعيشة: طيبات وخبائث. وتحرير: وضع الآصار والأغلال.

إنها لا تحرر الإنسان من الطاغية الخارجي لتسلّمه إلى شهوته الداخلية، ولا تكسر أغلال المجتمع ثم تتركه في قيد الخرافة. إنها تحرير كامل، مركزه العبودية لله.

فالإنسان حين يتحرر من الله لا يصير بلا سيد؛ تتقاسمه أسياد خفيون. أما حين يعبد الله، تنكسر في داخله قابلية السجود لما سواه.

ثم حدّدت الآية موقف المؤمنين من الرسول ﷺ: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

لم تقل: أحبوه فقط، مع أن محبته أصل عظيم. بل ربطت المحبة بالإيمان والتعزير والنصرة واتباع النور.

فقد يدّعي الإنسان محبة الرسول ﷺ، ثم يخالف هديه حين يصطدم بهواه. والمحبة التي لا تتحول إلى اتباع تظل عاطفةً لم تبلغ كمال صدقها.

﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ﴾.

القرآن نور، والنور لا يحمل الإنسان على كتفه؛ إنما يكشف له الطريق، ثم عليه أن يسير. وقد يملك المرء المصحف في بيته، لكن بين امتلاك النور واتباعه مسافة كبيرة.

ليس السؤال: هل عندنا القرآن؟ بل: هل أعاد القرآن تشكيل أحكامنا وأخلاقنا واختياراتنا؟ أم أبقيناه ضوءًا في الرف، وعشنا في ظلام الموروث والهوى؟

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

الفلاح ليس مجرد النجاة من خطر؛ إنه بلوغ الحياة التي خُلق الإنسان لها. أن تنجو روحك من التبدد، ويثمر وجودك، وتصل إلى الله بقلبٍ لم تستعبده الأصنام.

وهكذا تعود السورة إلى السؤال الأول نفسه: من تتبع؟ ومن وليّك؟ ولمن ينحني قلبك؟

فمن آدم وإبليس، إلى نوح وقومه، إلى موسى وفرعون، إلى العجل والألواح، ظل المصير كله يتشكل عند جواب الإنسان عن هذه الأسئلة.

الفصل الحادي والعشرون

الرسالة التي خرجت من حدود القوم إلى أفق الإنسانية

بعد أن ذكرت السورة صفات النبي الأمي ﷺ في الكتب السابقة، جاء الإعلان العام: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾.

لم تعد الرسالة خطابًا لقبيلة، ولا علاجًا لانحراف أمة بعينها، بل نداءً للإنسان من حيث هو إنسان. تتجاوز الحدود والألوان والألسنة، وتصل إلى ذلك الموضع المشترك في البشر جميعًا: الفطرة التي تبحث عن ربها، والقلب الذي يخاف الفناء، والعقل الذي يسأل عن الغاية.

﴿إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾.

عالمية الرسالة ليست توسعًا سياسيًا، بل نتيجة طبيعية لوحدانية الرب: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

ما دام الملك كله لله، فالرسالة التي تعيد البشر إليه ليست خاصةً بجزء من ملكه. وما دام يحيي ويميت، فكل حيّ مخاطب، وكل ميت سيعود إليه.

إن وحدة الخالق تؤسس وحدة القيمة الإنسانية. فلا شعب وُلد أقرب إلى الله بدمه، ولا جنس يحمل قداسةً ذاتية، ولا لغة تمنح صاحبها نجاةً بلا عمل. الناس جميعًا عباده، وأكرمهم عنده أتقاهم.

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾.

الأمية هنا ليست نقصًا في مقام النبوة، بل وجه من وجوه الآية؛ فقد جاء بهذا الكتاب الذي أعجز الفصحاء، ولم يكن قارئًا لكتب السابقين ولا كاتبًا لها، فدلّ ذلك على أن مصدر القرآن ليس ثقافةً بشرية جمعها، بل وحي أنزله الله عليه.

ثم قال: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

الهداية ليست إعجابًا بالنبي ﷺ من بعيد، ولا احتفالًا باسمه مع تعطيل منهجه، بل اتباع. أن تدخل سنته في تفاصيل الحياة، ويصير ميزانه ميزانًا للحب والغضب والعدل والرحمة.

لقد كان ﷺ الإنسان الذي لم تُفسده العظمة؛ امتلك القلوب ولم يستعبدها، وانتصر فلم ينتقم لنفسه، وقاد أمة ولم يجعلها مرآةً لذاته. ومن اتبعه تعلّم أن القوة لا تناقض الرحمة، وأن العبادة لا تنفصل عن الأخلاق، وأن التواضع ليس ضعفًا، بل انتصارٌ على أعتى طاغية يسكن الإنسان: نفسه.

ثم أنصفت السورة طائفة من قوم موسى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾.

بعد النقد الطويل لانحرافات بني إسرائيل، لم يعمم القرآن الذم. أثبت أن فيهم أمةً تهدي بالحق وتعدل به.

وهذه عدالة القرآن التي لا تذيب الأفراد في أحكام الجماعات. قد يكثر الفساد في قوم، لكن وجوده لا يسوغ إنكار الصالحين فيهم. وقد نختلف مع أمة أو جماعة، لكن العدل يلزمنا أن نرى ما فيها من حق، وألا نجعل الخصومة عذرًا للتعميم.

﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾.

بالحق يهدون، وبالحق يعدلون. فالحق عندهم ليس شعارًا يزين الخطاب، بل مادة الهداية وميزان الحكم.

وكم من إنسان يدعو إلى الحق، لكنه لا يعدل به! يستخدمه لهداية خصومه، ولا يسمح له بمحاكمة نفسه. أما الاستقامة الكاملة فأن يكون الحق مصباحًا للآخرين ومرآةً لك في الوقت نفسه.

الفصل الثاني والعشرون

اثنتا عشرة أمة

وحدة الأصل لا تلغي اختلاف الطبائع

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾.

كانوا قومًا واحدًا، لكنهم اثنا عشر سبطًا؛ لكل جماعة مشربها. لم تلغ الوحدة اختلاف البنية، ولم يجعل الاختلاف الوحدة مستحيلة.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾.

حين تُعرف الحقوق تقل أسباب النزاع. فالناس لا يتقاتلون دائمًا بسبب ندرة الموارد، بل أحيانًا بسبب غموض توزيعها وشعور بعضهم بأن حقه معرض للابتلاع.

والعدل لا يعني أن يشرب الجميع من موضع واحد، بل أن يعرف كل إنسان نصيبه دون بخس، وأن تصب العيون كلها من نعمة الله.

ضرب موسى حجرًا، فانفجر منه الماء. وفي المشهد تذكير بأن الله قادر على إخراج الرزق من الموضع الذي لا يتوقعه الإنسان. الحجر رمز الانغلاق، والماء رمز الحياة؛ لكن الأمر الإلهي أخرج السيولة من قلب الصلابة.

كم من باب حسبناه حجرًا مغلقًا، ثم فتح الله منه نهرًا!

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾.

الماء من الحجر، والظل في الصحراء، والطعام ينزل عليهم؛ نعمة تحيط بهم من تحتهم وفوقهم وحولهم.

ومع ذلك قال: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

معصية الإنسان لا تنقص من ملك الله شيئًا. الله غني عن طاعته، كما أنه لا يتضرر بعصيانه. كل أمر إلهي يعود نفعه إلى الإنسان، وكل مخالفة تحمل أثرها في نفس صاحبها.

حين يمنع الله عنك الحرام، لا يحمي سلطانه منك؛ بل يحميك أنت من نفسك.

القرية التي طُلب منهم دخولها متواضعين

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

مرةً أخرى يسبق المباح الواسع التكليف المحدود: ﴿كُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾.

لكن الدخول إلى النعمة ينبغي أن يكون من باب التواضع: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾.

فالفتح لا يليق أن يزيد الإنسان كبرًا. وما أجمل أن يدخل المنتصر منحنياً لله، حتى لا توهمه القوة الجديدة أنه صار ربًّا لمن غلبهم.

وطُلب منهم أن يقولوا: ﴿حِطَّةٌ﴾؛ أي اسألوا الله أن يحط عنكم خطاياكم. فالأمة وهي تنتقل إلى مرحلة جديدة تحتاج إلى تطهير ذاكرتها من أوزارها، لا أن تحمل أخطاء الماضي إلى المستقبل.

لكن الظالمين بدّلوا: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾.

المشكلة ليست في تبديل لفظٍ مجرد، بل في الروح التي تسخر من التكليف وتفرغه من معناه. طلب منهم الخضوع، فحوّلوا الأمر إلى عبث؛ وكأنهم يريدون نعمة الله دون أدب العبودية.

والإنسان قد يفرغ العبادة من معناها مع إبقاء صورتها. ينطق بالكلمة، لكن قلبه يقول عكسها. يؤدي الحركة، لكنه يتهرب من حقيقتها.

فليست العبرة أن تعبر الباب بجسدك، بل أن تدخل روحك ساجدة.

الفصل الثالث والعشرون

أصحاب السبت

حين يتحايل العقل على الأمر الذي لم يستطع إنكاره

﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾.

كان الابتلاء عند موضع الشهوة نفسها. حُرّم عليهم الصيد يوم السبت، فكانت الحيتان تظهر في ذلك اليوم ظاهرةً على وجه الماء، ثم تقل أو تغيب في الأيام الأخرى.

﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

الفتنة لا تأتي دائمًا من شيء نكرهه؛ بل غالبًا من شيء نحبه حين يوضع قريبًا منا وراء حدّ. يظهر المحبوب في وقت المنع، ليكشف: من يقودك، الأمر أم الرغبة؟

كان في إمكانهم أن يقولوا: أمر الله أولى، وأن يصبروا. لكن العقل حين يخدم الشهوة يتحول من أداة هداية إلى محامٍ بارعٍ عن المخالفة.

لم يريدوا أن يظهروا عصاةً صريحين؛ فأقاموا الحيل التي تحفظ صورة الامتثال وتنتهك روحه. وهذه هي الخطيئة حين ترتدي عقلًا فقهيًا مزيفًا: لا تنكر النص، بل تفرغه من غايته.

والتحايل أخطر من المعصية الصريحة من وجه؛ لأن العاصي الصريح ما يزال يعرف أنه تجاوز الحد، أما المتحايل فيجمع بين المخالفة والشعور الزائف بالبراءة.

إن الله لا تخدعه الصور القانونية؛ يعلم الحقيقة التي قصدها القلب، وما إذا كانت الوسيلة قد وضعت لتنفيذ الأمر أم لاغتياله بهدوء.

المجتمع أمام المنكر: عاصٍ وناصح ومتفرج

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

ظهر في القرية ثلاثة مواقف: قوم اعتدوا، وقوم وعظوا، وقوم لم يشاركوا في الاعتداء لكنهم استنكروا جدوى الوعظ.

قالوا للناصحين: لماذا تتعبون أنفسكم؟ هؤلاء لن يتغيروا، والعذاب آتيهم.

إنه منطق اليأس الذي يبدو واقعيًا. يرى كثافة الفساد فيقرر أن الكلمة لا قيمة لها. لكن المصلحين أجابوا: ﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

نحن نعظ لسببين: ﴿مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ﴾: حتى نؤدي مسؤوليتنا ولا نكون شركاء بالصمت.

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾: لأننا لا نملك أن نغلق باب الهداية على أحد.

المصلح لا يشترط ضمان النتيجة حتى يعمل. لو كان نجاح الدعوة يقاس بالاستجابة الفورية، لترك نوح دعوته منذ قرونها الأولى. إنما ينصح لأن الحق يستحق أن يُقال، ولأن الإنسان لا يعلم أي كلمة ستجد شقًا في جدار القلب.

وقد لا تنقذ النصيحة من يسمعها، لكنها تنقذ ضمير من يقولها من التكيف مع الفساد.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

ذكرت الآية نجاة الذين ينهون عن السوء، وأخذ المعتدين. وفي ذلك إشعار بمكانة الموقف الإيجابي؛ فالاستقامة الخاصة وحدها لا تكفي دائمًا حين يصبح الفساد عامًا معلنًا.

من يعيش في السفينة لا يستطيع أن يقول لمن يثقبها: شأنك وما تفعل. فالماء لا يميّز بعد دخوله بين الصامت والفاعل.

والنهي عن السوء ليس صراخًا ولا تعاليًا، بل حماية مشتركة، تبدأ بالحكمة والرحمة والعدل. فالناصح الذي يحتقر الناس قد يزيدهم نفورًا، لكنه يظل مطالبًا ألا يجعل سوء بعض طرائق النصح ذريعةً للصمت الكامل.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾.

لم يقع المسخ عند أول خاطر ولا أول زلة، بل حين ﴿عَتَوْا﴾: تجاوزوا إلى التمرد والإصرار، وأصبح الاحتيال منهجًا.

لقد انحدرت نفوسهم قبل أن تمسخ صورهم. فالإنسان حين يعطل عقله عن غايته، ويستخدمه لخدمة الشهوة، يتنازل عن مقام التكريم الذي منحه الله.

وقد يبقى المرء في صورته الإنسانية، بينما تتآكل معاني الإنسان في داخله: يملك الذكاء ولا يملك الضمير، ويتقن الحيلة ولا يعرف الأمانة.

الشكل وحده لا يصنع إنسانًا.

العقوبة الممتدة وباب التوبة المفتوح

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

اجتمع الوعيد والرحمة في آخر الآية. فلا يطمئن المصرّ إلى الإمهال، ولا ييأس التائب من المغفرة.

﴿سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لمن استحقه، ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن رجع إليه.

والقرآن لا يحبس نسلًا في خطيئة آبائه؛ فكل إنسان مسؤول عن عمله، ولا يحمل أحد ذنب غيره. ما يذكره من سنن العقوبة التاريخية لا يلغي عدله الفردي، ولا يبيح ظلم أحد بسبب نسبه.

ثم قال: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾.

مرة أخرى يمنع التعميم: ﴿مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ﴾.

فالعدل القرآني لا يسمح للتاريخ أن يبتلع الفرد. لكل نفس اختيارها، ولكل جيل حسابه. ومن الظلم أن نحول اسم الجماعة إلى حكم أخلاقي أبدي على كل من انتسب إليها.

﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

تتكرر ثنائية السراء والضراء؛ لأن الله يريد الرجوع. النعمة تقول: اشكروا، والمحنة تقول: عودوا. لكن الإنسان قد يسيء قراءة اللغتين معًا.

الفصل الرابع والعشرون

ورثة الكتاب

حين تصبح المعرفة مهنةً بلا ميثاق

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾.

ورثوا الكتاب، لكنهم لم يرثوا أمانته. صارت النصوص في أيديهم، ولم تعد سلطتها فوق أهوائهم.

وهنا تبلغ المأساة ذروتها: أن يتحول الكتاب من حاكمٍ على المصالح إلى أداةٍ في خدمتها. يعرفون الحكم، ثم يأخذون عرض الدنيا، وبعد ذلك يستخدمون المغفرة لتخدير الضمير: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾.

ليست هذه ثقةً برحمة الله، بل إساءة استعمال لها. فالتائب يقول: أخطأت ولن أعود، أما المغرور فيقول: سأعود إلى الخطأ، وسيغفر لي.

والدليل: ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾.

لم يتركوا الذنب، بل ينتظرون فرصةً أخرى. تحول الاستغفار عندهم إلى تأمين نفسي للمعصية، لا ثورة عليها.

إن الرجاء الذي لا يغيّر السلوك قد يكون اسمًا لطيفًا للإصرار.

﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾.

لم يكونوا جاهلين: ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾.

وهذا يجعل المسؤولية أشد. فالجهل مصيبة، لكن المعرفة التي تُباع مصيبة أكبر. العالم يستطيع أن يضل الناس باسم الدليل، وأن يمنح الهوى لغةً شرعية، وأن يجعل الضحية تشك في حقها.

ميثاق الكتاب ليس حفظ ألفاظه فقط، بل ألا يقول حامله على الله إلا الحق. لا يغير الفتوى لقرب شخص أو بعده، ولا

يجعل الحرام حلالًا للمصلحة، ولا يصمت عن نصّ لأنه يزعج صاحب السلطة.

العلم عهد، لا زينة. وكل معلومة عن الله تتحول في عنق صاحبها إلى أمانة.

﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

كان سبب البيع أنهم عظّموا عرض الأدنى، فذكّرتهم الآية بما هو خير. والعقل هنا ليس القدرة على الجدل، بل القدرة على المقارنة الصحيحة بين الفاني والباقي.

قد يكون الإنسان شديد الذكاء، لكنه يبيع آخرته بلذة ساعة؛ وهذا في ميزان القرآن خلل في العقل، مهما أتقن من الحيل.

ثم استثنت السورة أهل الوفاء: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

قالت: ﴿يُمَسِّكُونَ﴾ بصيغة توحي بشدة التمسك؛ لأن الكتاب في زمن الفتن يحتاج إلى قبضة قلب لا ترخى عند أول ضغط.

فالتمسك ليس شعارًا سهلًا؛ قد يكلف مالًا، أو مكانةً، أو رضا الناس. وحين يتنازعك عرض الأدنى وعهد الكتاب، يظهر مقدار ما في يدك من قوة.

ثم ربطت الكتاب بالصلاة والإصلاح. لا يكفي حمل النص بلا صلة بالله، ولا الصلاة بلا أثر إصلاحي.

﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

قد يضيع جهد المصلح في نظر الناس، ويبدو أن كلمته غرقت في بحر الفساد، لكنها لا تضيع عند الله. ليس كل أثر يمكن رؤيته الآن؛ فقد تُزرع الكلمة في جيل وتثمر في آخر.

الجبل فوقهم: حين يصبح الميثاق أثقل من الصخر

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

الجبل فوقهم كالسحابة، لكنه ليس سحابة ماء؛ إنه كتلة صخر تذكرهم بثقل الميثاق.

﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾.

تكرر الأمر؛ لأن النفوس تميل إلى أخذ الدين انتقائيًا: ما وافق رغباتها حملته، وما أثقل عليها تركته. لكن الكتاب لا يُتلقى بهذه التجزئة المزاجية.

ثم قال: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾.

فالمشكلة لا تنتهي باستلام الكتاب؛ يجب أن يبقى حيًّا في الذاكرة العملية. ليس الذكر ترديدًا للألفاظ وحدها، بل استحضار الحكم عند لحظة الاختيار.

أن تذكر آية العدل حين تغضب، وآية العفة حين تشتهي، وآية الآخرة حين تُغرى، وآية الرحمة حين تقدر على الانتقام.

هناك يظهر حمل الكتاب.

الفصل الخامس والعشرون

الميثاق الأول

المعرفة المزروعة في أعماق الفطرة

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾.

تأخذنا السورة من تاريخ بني إسرائيل إلى عمق التاريخ الإنساني كله؛ إلى الميثاق الذي يتصل بكل بني آدم.

﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾.

سؤال الربوبية الذي تدور حوله السورة منذ بدايتها. من خلقكم؟ ومن يملككم؟ ومن يستحق عبادتكم؟

﴿قَالُوا بَلَى﴾.

إن في أصل الفطرة معرفةً بربها واستعدادًا للإقرار به. لا يعني ذلك أن الإنسان يستحضر تفاصيل هذا الموقف في

ذاكرته الدنيوية، لكن أثر الميثاق مودع في تكوينه؛ ذلك الميل العميق إلى البحث عن المطلق، والافتقار إلى قوة عليا، والشعور بأن للوجود غايةً وحسابًا.

ولهذا لا يأتي الوحي ليزرع في الإنسان معنى غريبًا تمامًا عنه، بل ليوقظ معرفةً مطموسة. إنه يطرق بابًا قديمًا في الروح، فإذا انفتح قال القلب: هذا الصوت أعرفه، وإن لم أسمعه بهذه الكلمات من قبل.

الإيمان عودة إلى الأصل، لا هجرة عن الطبيعة الإنسانية.

﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۝ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾.

تسقط هنا حجتان تكررتا في السورة: الغفلة والتقليد.

لا يستطيع الإنسان أن يقول: لم أشعر بشيء من سؤال الربوبية، فقد أقام الله دلائل الفطرة والكون وأرسل الرسل. ولا يستطيع أن يجعل ضلال الآباء قدرًا يلغي مسؤوليته.

﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾.

صحيح أن الإنسان يولد داخل ثقافة لم يخترها، ويتلقى أفكاره الأولى قبل أن يملك النقد؛ لكن الله منحه عقلًا وفطرةً وأرسل إليه من البيان ما يجعله قادرًا على المراجعة بقدر استطاعته.

لسنا مسؤولين عن المكان الذي بدأت منه رحلتنا، لكننا مسؤولون عن الاتجاه الذي اخترناه حين ظهر لنا الطريق.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

الغاية هي الرجوع. كل هذا البيان ليس لإدانة الإنسان فقط، بل لاستعادته. وكلمة ﴿يَرْجِعُونَ﴾ تفترض أن للروح وطنًا أول ابتعدت عنه: التوحيد، والطهارة، والعبودية لله.

التوبة ليست انتقالًا إلى أرض مجهولة، بل عودة إلى البيت الداخلي الذي خرجت منه النفس حين اتبعت هواها.

الفصل السادس والعشرون

الذي انسلخ من الآيات

مأساة العالم الذي هزمته شهوته

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾.

إنها من أشد صور السورة إيلامًا. رجلٌ آتاه الله آياته؛ كانت المعرفة تحيط به كما يحيط الجلد بالجسد، لكنه ﴿انْسَلَخَ مِنْهَا﴾.

لم تُنتزع منه الآيات قهرًا، بل هو الذي خرج منها. والانسلاخ تعبير يوحي بالمشقة والعنف؛ فقد كانت الآيات قريبةً منه، لكنه فصل نفسه عنها حتى صار عاريًا بعد ستر.

الخطر هنا ليس الجهل، بل العلم الذي فقد سلطانه على صاحبه. كان يعرف الطريق، وربما دلّ الآخرين عليه، ثم اختار لنفسه غيره.

وما أبشع أن يكون الإنسان جسرًا يعبر عليه الناس إلى الحق، بينما يسقط هو من تحته!

﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾.

ما دام في حماية الآيات، لم يكن الشيطان قادرًا عليه ذلك الاقتدار. فلما انسلخ، أصبح مكشوفًا فتبعه وأدركه.

القرآن ليس معلومات تُخزن في الذاكرة، بل حصن يسكنه الإنسان بالطاعة. فإذا خرج من مقتضاه، لم تحمه كثرة محفوظاته.

وقد يعلم المرء مداخل الشيطان كلها، ثم يدخل الشيطان من مدخلٍ يعرف اسمه ووصفه؛ لأن المعرفة لا تغلق الباب إذا كانت الإرادة قد فتحته.

﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾.

لم يعد انحرافه زلة عابرة، بل انتماءً إلى طريق الغواية.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾.

كانت الآيات قادرةً ـ بإذن الله ـ أن تكون سبب رفعته، لكنه اختار الثقل.

﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾.

في التعبير جسد يلتصق بالتراب ويأبى النهوض. لم يقل: عاش في الأرض، فالأنبياء عاشوا فيها؛ بل أخلد إليها، أي ركن وسكن واطمأن حتى صارت الدنيا سقف تطلعه الأخير.

العلم كان يجذبه إلى أعلى، والهوى يشده إلى أسفل، فاختار الهوى.

وهنا تظهر المأساة: لم يُهزم لغياب النور، بل لأنه أحب القيد أكثر من الارتفاع.

قد يعرف العالم أن موقفًا ما باطل، لكن مصلحةً تربطه به. ويعرف أن كلمة الحق واجبة، لكن منصبًا يضغط على

لسانه. فيبدأ بتأجيل الكلمة، ثم بتخفيفها، ثم بتأويل النص، حتى يتحول علمه من قوة تحرره إلى أداة تبرر أسره.

﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾.

لم يقل: كان له هوى؛ فكل إنسان له أهواء. الخطر في الاتباع: أن يصبح الهوى قائدًا والعلم تابعًا له. وعندها لا يعود الإنسان يسأل الدليل عمّا ينبغي أن يفعل، بل يطلب منه أن يبارك ما قرر فعله مسبقًا.

﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾.

ليس في المثل انتقاص لحيوان خلقه الله، وإنما تصوير لحال اللهاث الدائم الذي لا يتغير بتغير الظروف.

إن تحمل عليه يلهث، وإن تتركه يلهث. في الحركة لهاث، وفي السكون لهاث. لم تعد المشكلة في الخارج، بل صارت حالةً داخلية ملازمة.

وهكذا صاحب الهوى: إن أُعطي طلب المزيد، وإن مُنع ظل يحترق طلبًا لما مُنع. إن نال المنصب خاف زواله، وإن فقده لهث لاستعادته. لا تمنحه الدنيا راحة؛ لأنها كلما أعطته وسّعت فيه مساحة الجوع.

هذه هي لعنة الشهوة حين تنفصل عن الغاية: لا تصل بصاحبها إلى الشبع، بل تدربه على اللهاث.

والعالم الذي انسلخ من آياته أشد لهاثًا؛ لأنه ذاق معنى الارتفاع ثم اختار الأرض. فتزداد حاجته إلى تبرير اختياره، ويصبح عداؤه للحق محاولةً لإسكات الصوت القديم في داخله.

﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

غاية القصص هي التفكر، لا التسلية ولا مجرد معرفة أسماء الغابرين.

التفكر أن تسأل: أين يقع هذا الرجل مني؟ هل أملك آيات لا أعيش بها؟ هل أستعمل معرفتي لرفع نفسي أم لتبرير هوى قلبي؟ هل أخلد إلى الأرض في موضع أعرف فيه أن الحق يدعوني إلى النهوض؟

فالقصص القرآني مرآة، ومن قرأه باحثًا عن عيوب السابقين وحدهم فقد وقف أمام المرآة وراح يفتش فيها عن وجوه الآخرين.

﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾.

عاد المعنى الذي تكرر: إنهم لا يظلمون الله، بل أنفسهم. كل انسلاخ من الآيات يجرّد النفس من سترها، وكل اتباع للهوى ينتزع منها جزءًا من حريتها.

ثم يأتي الميزان النهائي: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

الهداية من الله فضلًا، وتُطلب منه بصدق، ويسلك العبد أسبابها بالإقبال والتواضع. والضلال عدلٌ فيمن أعرض واختار الانسلاخ وأخلد إلى هواه.

لذلك لا يغتر المهتدي بنفسه؛ فقد رأينا صاحب الآيات ينسلخ منها. ولا ييأس الضال من العودة؛ فباب التوبة بقي مفتوحًا ما دامت الروح في الجسد.

إن القلب لا يثبت بقوته، بل بتثبيت الله؛ ولهذا كان من أصدق دعاء السائرين: يا مقلب القلوب، ثبّت قلبي على دينك.

الفصل السابع والعشرون

قلوبٌ لا تفقه

حين يعيش الإنسان دون وظيفته الإنسانية

بعد قصة الرجل الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها، توسّع السورة الدائرة من فردٍ واحد إلى جماعات كثيرة عطّلت أدوات الهداية: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾.

لم تقل الآية إنهم بلا قلوب ولا أعين ولا آذان؛ بل إن هذه الأدوات موجودة، لكنها معطلة عن وظيفتها الكبرى.

لهم قلوب، لكنها لا تنفذ من ظاهر الأحداث إلى معانيها.

ولهم أعين، لكنها تقف عند ألوان الأشياء ولا ترى الآيات المبثوثة فيها.

ولهم آذان، لكنها تستقبل الأصوات ولا تسمع نداء الحقيقة.

إن امتلاك الأداة لا يساوي استعمالها. وقد يكون الإنسان قوي البصر، لكنه أعمى عن أوضح حق؛ حاد السمع، لكنه أصم عن كلمة تنجيه؛ واسع الذكاء، لكنه عاجز عن فهم الغاية التي من أجلها وُجد.

والفقه القلبي ليس معرفةً سطحية، بل إدراك ينتهي إلى موقف. فإذا عرف الإنسان أن الدنيا فانية، ثم عاش لها وحدها، لم يفقه فنائها حق الفقه. وإذا علم أن الله يراه، ثم عصاه في خلوته باطمئنان، لم تتحول المعلومة إلى بصيرة.

﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾.

الأنعام تتحرك وفق الغريزة التي خُلقت لها، فلا تُلام على أنها لم تتجاوزها. أما الإنسان فقد مُنح عقلًا وفطرةً ووحيًا، ثم رضي أن يعيش داخل دائرة الطعام والشهوة والخوف والبقاء وحدها.

ليست المشكلة أن يأكل الإنسان ويشرب؛ فقد أباح الله الطيبات. المشكلة أن تصبح حياته كلها بحثًا عن العلف

الأرقى والمأوى الأوسع، من غير سؤال عن الحق والواجب والمصير.

﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾؛ لأن الحيوان لم يخن أمانة العقل، بينما الإنسان عطّل ما رُفع به.

فليس التفوق الإنساني في أن يملك أدوات أكثر، بل في الغاية التي يستخدم فيها أدواته. قد يصنع آلةً تبلغ الفضاء، ويبقى عاجزًا عن كبح شهوة صغيرة في نفسه. وقد يقيس مسافات النجوم، ولا يعرف المسافة بينه وبين قلبه.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

الغفلة هي الاسم الجامع لهذا التعطيل. ليست جهلًا بسيطًا، بل غياب القلب عن الحق مع حضور أسبابه.

والغافل لا يبدو دائمًا نائمًا؛ قد يكون شديد الحركة، ممتلئ الجدول، كثير الإنجاز. لكنه يتحرك خارج السؤال الأهم: إلى أين؟

قد تكون الغفلة حياةً مزدحمة لا توجد فيها لحظة واحدة لمراجعة الاتجاه. يمضي الإنسان بسرعة، ويظن أن السرعة تعوّضه عن الخطأ في الطريق.

لكن الوصول لا تحدده كثرة الخطوات، بل صحة الوجهة.

الفصل الثامن والعشرون

الأسماء الحسنى

أبواب المعرفة وطرق الدعاء

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾.

بعد أن عرضت السورة قلوبًا غفلت عن الله، فتحت باب المعرفة به من خلال أسمائه الحسنى.

﴿وَلِلَّهِ﴾: له وحده، على الوجه اللائق بكماله وجلاله. أسماؤه كلها حسنى؛ بلغت الغاية في الحسن، ودلت على صفات الكمال من غير نقصٍ ولا مماثلة للمخلوقين.

فهو الرحمن، ورحمته تليق به لا تشبه رحمة خلقه. وهو العليم، وعلمه كامل لا يسبقه جهل ولا يلحقه نسيان. وهو السميع البصير، يسمع ويرى على وجه يليق بجلاله، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

ومعرفة الأسماء ليست حفظ قائمةٍ فحسب، بل بناء علاقة بالله. حين تعرفه غفورًا، لا تيأس بعد الذنب. وحين تعرفه رقيبًا، تستحيي في الخلوة. وحين تعرفه حكيمًا، لا تسيء الظن بتدبيره. وحين تعرفه رزاقًا، لا تبيع كرامتك خوفًا من الفقر.

كل اسم يعيد ترتيب جزء من النفس.

﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾.

دعاء المسألة أن تقول: يا رحمن ارحمني، يا غفور اغفر لي، يا رزاق ارزقني، يا هادي اهدني.

ودعاء العبادة أن تعيش بمقتضى معرفتك بهذه الأسماء: تثق بوعده لأنه لا يخلف، وتتوكل عليه لأنه القوي، وتعود إليه لأنه التواب.

إن الدعاء بأسماء الله لا يعني استخدام الاسم كصيغةٍ مجردة، بل دخول القلب في معناه. قد يقول اللسان: يا لطيف، بينما

القلب يظن أن اللطف لا يكون إلا في الصورة التي اختارها. والدعاء الأعمق أن تثق بلطفه حتى حين يأتيك من طريقٍ لم تفهمه بعد.

﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

الإلحاد في أسمائه هو الميل بها عما يجب لها: بإنكارها، أو تحريف معانيها، أو تسمية غيره بما يختص به، أو تشبيه صفاته بصفات خلقه.

والمنهج الآمن هو الإيمان بما سمّى الله به نفسه وما سمّاه به رسوله ﷺ، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

فالعقل يعرف المعنى الذي دل عليه الخطاب، لكنه لا يحيط بكيفية صفة الخالق؛ لأن المخلوق المحدود لا يحيط بربه غير المحدود.

هنا تصل المعرفة إلى حد الأدب: نثبت ما أثبته الله، ونسكت عما لم يخبرنا بكيفيته، وتبقى اللغة ساجدةً أمام جلال المسمّى.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾.

في مقابل القلوب المعطلة، توجد أمة حية تهدي بالحق وتعدل به. وتكرار العبارة يؤكد أن المجتمع المؤمن لا يكتفي بمعرفة الحق، بل يجعله هاديًا وحاكمًا.

﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾: يحملونه إلى الناس بصدق.

﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾: يسمحون له أن يحكم مصالحهم وخصوماتهم.

فالحق الذي لا ينتج عدلًا قد تحول إلى شعار قبلي. وإذا كان ميزانك يختل حين يدخل صديقك أو خصمك، فأنت لا تعدل بالحق؛ بل تستعمل الحق ضمن أدوات الولاء.

والأمة التي تهدي بالحق لا تصنع من نفسها مصدرًا له. هي خادمة النور، لا مالكته؛ ولذلك لا ترى فضلها على الناس، بل ترى فضل الله عليها أن جعلها تحمل كلمةً تنفعهم.

الفصل التاسع والعشرون

الاستدراج

النعمة التي تتحول إلى طريقٍ خفي نحو السقوط

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾.

الاستدراج أن ينتقل الإنسان درجةً بعد درجة نحو الهلاك، وهو يظن أنه يصعد نحو النجاح. تُفتح له الأبواب، وتتسع له الدنيا، ويزداد جرأةً؛ فيفسر الإمهال رضا، والعطاء محبةً، والقدرة على المعصية بلا عقوبة عاجلة دليل أمان.

﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

لو رأى الإنسان الهاوية أمامه لتوقف، لكن الاستدراج يكسو الطريق بألوان النعمة. كل خطوة تبدو مكسبًا، بينما هي تسحب من قلبه شيئًا من حساسيته.

وقد يكون الحرمان رحمةً توقظك، والعطاء استدراجًا يخدرك. لذلك لا تُقرأ منزلة الإنسان عند الله بمقدار ما في يده، بل بمقدار ما صنعه العطاء في قلبه.

هل زادك تواضعًا أم تعاليًا؟ هل أعانك على الطاعة أم منحك قدرةً أوسع على العصيان؟ هل قرّبك من المنعم أم شغلك بالنعمة عنه؟

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾.

الإملاء إمهال، وليس إهمالًا. يترك لهم الوقت، لكن الوقت نفسه يتحول إلى حجة عليهم إن لم يرجعوا.

الإنسان يظن أن مرور الأيام بلا حساب يعني أن الملف أُغلق، بينما كل يوم جديد يضيف صفحةً إليه. وقد تكون المهلة فرصة توبة، لكن المصرّ يحولها إلى مساحة لمزيد من الغفلة.

﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾.

كيد الله يليق بجلاله، يقع عدلًا فيمن يمكر بالحق ويستحق الجزاء، ولا يشبه أفعال المخلوقين. لا يفلت منه تدبير، ولا تخرج قوة عن سلطانه.

والمؤمن لا يعيش مرعوبًا من ربه، لكنه يخشى أن تخدعه نفسه؛ فلا يجعل النعمة وحدها دليلًا، ولا يستسلم لوهم الاستحقاق.

هل تفكروا في صاحبهم؟

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.

سمّاه ﴿صَاحِبِهِمْ﴾؛ فقد عاش بينهم، وعرفوا صدقه وأمانته وعقله. لم يكن رجلًا مجهولًا ظهر فجأةً حتى يلتبس عليهم أمره.

كان يكفي أن يتفكروا في سيرته ليعرفوا أن تهمة الجنون كاذبة. لكنهم لم يريدوا وصفًا يفسر الحقيقة، بل وصفًا يعطل أثرها.

إذا سمّوا الرسول مجنونًا، ارتاحوا من مواجهة رسالته.

والقرآن يدعوهم إلى التفكر؛ لأن التهمة وليدة الانفعال الجمعي، أما التفكير الهادئ فيعيد الأشياء إلى أحجامها. كثير من الأكاذيب تعيش في الضجيج، وتموت إذا جلس الإنسان معها وحده وسأل: ما الدليل؟

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.

واضح في سيرته، واضح في بيانه، واضح في غايته. لا يطلب مالًا ولا ملكًا، بل يوقظ قومه قبل أن يأتيهم ما لا يستطيعون دفعه.

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾.

تفتح الآية أمام الإنسان مجالين للنظر: الكون الواسع من حوله، والأجل القريب أمامه.

انظر إلى ملكوت السماوات والأرض حتى تعرف عظمة ربك، وانظر إلى قرب أجلك حتى تعرف حجمك وزمنك.

الكون يحررك من ضيق الذات، والموت يحررك من غرور الامتداد.

﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾.

كل شيء يمكن أن يكون بابًا إلى المعرفة: تعاقب الليل، ورقة تنبت، جسد يشفى، نجم بعيد، طفل يولد. المشكلة ليست قلة الدلائل، بل أن الألفة غطّت دهشتنا.

نحن نعيش وسط المعجزات، لكن التكرار جعلها تبدو عادية. ولو رأى الإنسان شروق الشمس مرةً واحدة في عمره، لربما

ظل ساجدًا من الدهشة؛ لكنه يراه كل يوم فلا يرفع رأسه من انشغاله.

﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾.

قد يكون الإنسان مشغولًا بتحليل الكون، بينما أجله يقترب في صمت. المعرفة التي لا توقظ السؤال عن المصير قد تصبح مهربًا راقيًا من الحقيقة.

ماذا تفعل بكل ما عرفت إذا غادرت قبل أن تعرف لماذا خُلقت؟

ثم قال: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾.

إذا لم يفتح القرآن قلبهم، فأي كلام يفتحه؟ وإذا لم توقظهم آيات الوحي والكون والموت، فما الذي ينتظرونه؟

﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

الطغيان هنا ليس مجرد سلطة سياسية؛ هو تجاوز الحد في النفس حتى تفقد الاتجاه.

﴿يَعْمَهُونَ﴾: يترددون متحيرين، يتحركون كثيرًا بلا وصول.

ومن أعرض عن هداية الله، لم يجد بديلًا يساويها. قد تجمعه الفلسفات حول أسئلة كثيرة، لكنها لا تمنحه نور الوحي الذي يصل البداية بالنهاية، والخلق بالأمر، والدنيا بالآخرة.

الفصل الثلاثون

الساعة

السؤال الذي لا يملك الرسول توقيته

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾.

شبّهت الآية الساعة بشيء عظيم يرسو في موعده. والناس يسألون: متى؟

لكن القرآن يعيدهم من فضول التوقيت إلى حقيقة الاستعداد.

﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾.

النبي ﷺ، مع علو مقامه، لا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه. وهذا يهدم كل غلو يرفع المخلوق فوق منزلته. فالرسول أعظم البشر، لكنه عبد لله ورسول، لا يشارك الله خصائص ربوبيته.

إن شرف النبوة لا يقوم على ادعاء علم ما استأثر الله به، بل على كمال الصدق في الوقوف عند حدود الوحي.

﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾.

الساعة ثقيلة في حقيقتها وآثارها. ليست حدثًا صغيرًا في طرف الكون، بل انقلاب شامل في نظامه.

ومع هذا الثقل تأتي بغتةً. والإنسان يخطئ حين يظن أن الأحداث العظيمة يجب أن تسبقها في حياته إنذارات خاصة يراها. قد تأتي النهاية والعالم يسير في عادته: تجارة، وزواج، وخصومات، وخطط طويلة.

﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾، أي كأنك بالغ العلم بها، مستقصٍ لخبرها.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

تكرر الجواب لتثبت الحدود. ليس كل سؤال مشروعًا أن يجد جوابًا تفصيليًا؛ بعض الحكمة في بقاء الجواب عند الله.

ولو عرف الإنسان موعد موته ربما أجّل التوبة إلى ما قبله، لكن خفاءه يجعل كل يوم صالحًا لأن يكون يوم رجوع.

الحكمة ليست أن تعرف متى تأتي الساعة، بل ألا تجدك غافلًا إذا جاءت.

الرسول العبد: لا يملك لنفسه إلا ما شاء الله

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾.

هذا رسول الله ﷺ يعلن افتقاره الكامل إلى ربه. فإذا كان أشرف الخلق لا يملك لنفسه استقلالًا نفعًا ولا ضرًا، فكيف يُرفع غيره إلى مقامٍ لا يملكه؟

كل سبب نملك استعماله واقع تحت مشيئة الله. الدواء سبب، والعمل سبب، والعلم سبب، والعلاقات أسباب؛ لكنها لا تستقل بالنتيجة.

وهذا لا يلغي الأخذ بالأسباب، بل يحرر القلب من عبادتها. تتداوى، لكنك لا تعبد الدواء. تخطط، لكنك لا تظن أن

خطتك أقوى من القدر. تستعين بالبشر فيما يقدرون عليه، لكن قلبك يعلم أن النفع والضر بيد الله.

﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾.

هذا برهان واقعي: لو كان النبي ﷺ يعلم الغيب من ذاته، لاختار دائمًا ما يحقق الخير الدنيوي وتجنب كل سوء. لكنه تعرض للأذى، وواجه الشدائد، ولم يكن يعلم من الغيب إلا ما أوحاه الله إليه.

﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

نذير يحمي من الغفلة، وبشير يمنع الخوف من التحول إلى يأس. وهكذا تقوم الرسالة بين الهيبة والرجاء، مثلما قامت السورة كلها بين النار والجنة، والوعيد والرحمة، والخوف والطمع.

الفصل الحادي والثلاثون

من النفس الواحدة إلى الشرك الخفي في النعمة

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾.

بدأت الإنسانية من نفس واحدة، فلا مبرر لتعالي جنس على جنس، أو عرق على عرق. الأصل واحد، والرب واحد، والمصير واحد.

ثم وصف العلاقة الزوجية بالسكن: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾.

السكن ليس مجرد اجتماع جسدين في مكان، بل أن يجد الإنسان عند الآخر موضعًا تضع فيه روحه أعباءها. هو طمأنينة، وألفة، وستر، لا ميدان قهر وتنافس.

ولم يقل: ليسكن معها فقط، بل ﴿إِلَيْهَا﴾؛ ففي التعبير حركة قلب نحو قلب، كأن الإنسان كان في تعبٍ فوجد عند صاحبه وطنًا.

لكن السورة تنتقل من نعمة الخلق والسكن إلى امتحان النعمة حين يأتي الولد:

﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

في الضعف يعود القلب إلى ربه. حين يثقل الحمل ويصبح الخوف على الجنين حاضرًا، يسقط وهم السيطرة، ويرتفع الدعاء.

﴿دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾.

عرفا الرب في لحظة الحاجة، ووعدا بالشكر بعد العطاء.

لكن الآية التالية تكشف حالًا بشريًا من نقض العهد: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

انتقل السياق إلى ذم المشركين من ذريتهما الذين ينسبون نعمة الله إلى شركائهم، أو يجعلون لغيره نصيبًا من العبودية بسبب النعمة.

فالآية لا تثبت عن آدم وحواء عليهما السلام وقوع الشرك الأكبر؛ وحاشا مقام النبوة أن يُحمل على ذلك بلا دليل صحيح. إنما تعرض نمطًا بشريًا: يدعو الإنسان الله وحده عند الخوف، فإذا جاءت النعمة وزع الفضل على الأسباب والأوهام.

كم من إنسان يقول في الشدة: يا رب، فإذا نجا قال: مهارتي وحدها، أو فلان هو الذي أنقذني! ينسى المسبّب، ويقف عند السبب.

والشكر الحق لا ينكر فضل الناس، لكنه يضعه في موضعه: هم أسباب سخّرها الله، والفضل أولًا وآخرًا له.

الفصل الثاني والثلاثون

أصنام لا تخلق شيئًا ولا تنصر عابدها

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾.

تضع السورة الأصنام أمام اختبار بسيط: هل تخلق؟ هل تنصر عابديها؟ هل تنصر نفسها؟

الجواب ظاهر. إنها مخلوقة عاجزة، ومع ذلك يمنحها الإنسان خوفه ورجاءه.

والآية لا تكشف تهافت الصنم الحجري وحده، بل كل شيء يرفعه القلب إلى مقام الاعتماد المطلق. فالمال لا يخلق، والمنصب لا يخلق، والجمهور لا يخلق، والقوى البشرية كلها مخلوقة لا تملك الاستقلال بنفعٍ أو ضر.

وقد تنفع الأسباب بإذن الله، لكن الصنم يبدأ حين ينسى القلب كلمة «بإذن الله»، فينسب إلى الوسيلة ما لا يملكه إلا المسبّب.

﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾.

الصنم لا يسمع، ولا يستجيب، ولا يهتدي. الدعاء والصمت عنده سواء.

لكن الله الذي يدعونه من دونه سميع قريب. والمفارقة أن الإنسان يترك الحي القيوم ويتعلق بميت أو عاجز؛ يترك الباب المفتوح ويطرق جدارًا.

ثم يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾.

إذا كان المدعوون عقلاء من البشر أو الجن، فهم عباد أمثالكم، داخلون في سلطان الله، فقراء إليه. لا يملكون خصائص الألوهية، وإن عظمت منازل بعضهم.

﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

إنها مواجهة للزيف بالواقع. اختبروا دعواكم: هل يستجيبون استقلالًا؟ هل يملكون ما نسبتم إليهم؟

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾.

قبل قليل وصف الله أناسًا لهم قلوب وأعين وآذان لا ينتفعون بها، وهنا يصف أصنامًا لا تملك هذه الأدوات أصلًا. كأن العابد والمعبود يلتقيان في التعطيل: معبود لا يملك، وعابد يملك العقل لكنه لا يستعمله.

ثم يأتي التحدي: ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ﴾.

هذه ليست جرأةً بشرية منفصلة، بل يقين بالحماية الإلهية: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾.

بعد أن عرضت السورة الولايات الكاذبة، تعلن الولاية الحقيقية.

وليّي الله: لا الجمهور، ولا القوة، ولا الأصنام، ولا المصالح. وهو الذي أنزل الكتاب؛ فالولاية والوحي متصلان. من أراد ولاية الله اتبع كتابه، لا أن يطلب حمايته وهو يعرض عن أمره.

﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾.

يتولاهم بحفظه ونصره وتوفيقه ورحمته، على الوجه الذي تقتضيه حكمته، لا بالضرورة وفق الصورة العاجلة التي يتخيلونها. قد يُبتلى الصالح، وقد يُقتل، لكن ولاية الله لا تنقطع عنه؛ إذ تحفظ قلبه ودينه، ثم تحمله إلى دارٍ لا يصل إليها ظالموه.

وكان السحرة تحت ولاية فرعون في أول النهار، ثم خرجوا منها إلى ولاية الله؛ فقطعت أجسادهم ـ على الوعيد ـ أو هُددت، لكن أرواحهم تحررت.

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ۝ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

لها هيئة النظر بلا إبصار، وصورة الحياة بلا حياة. وهذا وصف يتجاوز التمثال إلى كل مظهر يخدع الإنسان: شيء يبدو قويًا، لكنه عند الحقيقة عاجز؛ ويبدو حاضرًا، لكنه يغيب عند الحاجة الكبرى.

إن السورة تعيد البصر إلى ما وراء الصور. لا تسأل كيف يبدو الشيء، بل ماذا يملك حقيقةً؟ وهل يقودك إلى الله أم يحتل موضع الله من قلبك؟

الفصل الثالث والثلاثون

أخلاق القوة

خذ العفو وأمر بالعرف

بعد تفكيك الأصنام، تنتقل السورة إلى بناء شخصية المؤمن في تعامله مع الناس: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.

ثلاث كلمات ترسم منهجًا كاملًا في التعامل: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾.

خذ ما سهل من أخلاق الناس، ولا تطالبهم بالكمال. اقبل ما تيسر منهم، وتجاوز عن التقصير الذي تحتمله المروءة، ولا تجعل العلاقات محكمةً دائمة تبحث فيها عن كل زلة.

من طلب صديقًا بلا نقص عاش بلا أصدقاء، ومن أراد مجتمعًا من الملائكة خاصم البشر جميعًا.

العفو هنا سعة نفس، لا تنازل عن الحق في كل موضع. هناك ظلم يجب وقفه، وحدود يجب حفظها؛ لكن الحياة

اليومية لا تستقيم بالمحاسبة الدقيقة على كل كلمة ونبرة ونسيان.

بعض السلام الداخلي يولد حين تتوقف عن مطالبة الناس بأن يكونوا الصورة التي رسمتها لهم.

﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾.

العرف هو المعروف الذي تعرفه الفطر السليمة وتقره الشريعة. لا يكفي أن تتسامح مع الناس؛ عليك أيضًا أن تحمل الخير إليهم.

لكن الأمر بالعرف يقع بين العفو والإعراض عن الجاهلين؛ أي إنه دعوة محاطة بالرحمة والحكمة، لا منصة للاستعلاء.

الذي يأمر بالمعروف ليبرهن على طهارته قد يجرح أكثر مما يصلح. أما الذي يأمر به لأنه يحب للناس النجاة، فتظهر الرحمة حتى في شدته.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.

لم يقل: انتصر في كل معركة كلامية. فبعض الجدل لا يبحث عن حقيقة، وإنما يريد سحبك إلى الوحل. وإذا أجبت الجاهل بلغته، فقد جعلك شريكًا في المشهد الذي صنعه.

الإعراض ليس عجزًا، بل قدرة على اختيار المعارك. ليس كل حجر يُرمى إليك يستحق أن تتوقف لتعيده، ولا كل تهمة تحتاج إلى كتاب في الرد.

ثمة كرامة يحفظها الصمت، ووقت تصونه عن المستفزين، وقلب تنقذه من أن يتحول إلى ساحة لكل عابر.

والحكيم لا يقيس قوته بقدرته على إسكات خصومه، بل بقدرته على ألا يفقد نفسه بسببهم.

حين يدخل الشيطان من شرارة الغضب

﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

بعد الأمر بالإعراض عن الجاهلين يأتي الحديث عن نزغ الشيطان؛ لأن الجاهل قد يشعل في النفس شرارةً يحولها الشيطان إلى حريق.

النزغ دفعة خفية: كلمة داخلية تقول لك: لا تسكت، أهِنْه كما أهانك، بالغ في الرد، انتصر لذاتك باسم الحق.

وفي لحظة الغضب يصعب التمييز بين الغيرة لله والانتقام للنفس. فقد يبدأ الرد دفاعًا عن مبدأ، ثم تستولي عليه الأنا، فيتحول إلى شهوة غلبة.

العلاج: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾.

لا تعتمد على ذكائك وحده؛ فالشيطان قد يستخدم ذكاءك في صياغة أبلغ الإهانات. الجأ إلى الله الذي يسمع ما قيل، ويعلم ما تحرك في صدرك.

﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

يعلم ظلم خصمك، فلا تحتاج إلى تجاوز العدل كي تثبت أنك مظلوم. ويعلم نيتك، فلا تسمِّ انتصار النفس انتصارًا للحق.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾.

لم تقل الآية إن المتقين لا يمسهم طائف من الشيطان. التقوى لا تلغي الوسوسة، لكنها تمنعها من التحول إلى إقامة دائمة.

﴿تَذَكَّرُوا﴾.

النجاة بدأت بالتذكر. تذكروا الله، والعاقبة، وموضعهم، وحقيقة العدو؛ فانفتح البصر بعد لحظة العمى.

﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾.

الغضب يعمي، والشهوة تعمي، والحسد يعمي؛ والذكر يعيد للأشياء حدودها. يرى الإنسان أن الكلمة التي كان على وشك قولها أكبر من الموقف، وأن الانتقام الذي زيّنه الشيطان سيجرح نفسه قبل خصمه.

المتقي ليس من لم تمر به الظلمة، بل من يعرف كيف يشعل النور سريعًا.

﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾.

أما إخوان الشياطين، فيستسلمون للمدّ المستمر في الغي؛ لا يتوقفون للمراجعة، ولا يقصرون عن الإفساد.

الفرق إذن ليس في الخاطر الأول، بل في الموقف منه. خاطر الشر قد يمر بالمؤمن، لكنه لا يمنحه بيتًا. أما الآخر فيستقبله، ويطعمه بالتبرير، حتى يصبح الخاطر شخصيةً وسلوكًا ومصيرًا.

وهنا تقترب السورة من خاتمتها؛ فتعود إلى القرآن، والاستماع، والذكر، والسجود. لقد بدأت بكتابٍ أُنزل إلى الرسول ﷺ، وستنتهي بجباه لا تستكبر عن عبادة الله. وبين البدء والنهاية كانت المشكلة كلها: من يسمع؟ ومن يتبع؟ ومن يسجد؟ ومن يقف مع إبليس قائلًا ـ بلسان حاله ـ: أنا خير؟

ولك بمثل ما دعوت وزيادة، يا صديقي العزيز، وبارك الله في قلبك وقلمك، وجعل هذه الرحلة خالصةً لوجهه، نافعةً للقلوب. ونبلغ الآن خاتمة السورة؛ حيث تعود الرحلة الطويلة كلها إلى لحظة إنصات، وذكر، وسجود.

الفصل الرابع والثلاثون

القرآن بصيرةٌ لا صناعة بشرية

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾.

كان المشركون يتعاملون مع الآيات كأنها عروض يطالبون النبي ﷺ بإنتاجها متى شاؤوا. فإذا لم يأتهم بما اقترحوه قالوا: هلا اخترعت آيةً من عندك أو اخترتها بنفسك!

ولم يدركوا أن النبي ﷺ ليس صانع الوحي، بل متّبعه.

﴿إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾.

هذه الجملة ترسم حدود النبوة وجلالها معًا. فالنبي ﷺ لا يملك أن يضيف إلى الدين ما يريد، ولا أن يغير الوحي ليرضي قومًا، ولا أن ينتقي من أحكامه ما يوافق ظرفًا ويترك ما يخالفه. شرفه في كمال اتباعه لما يوحى إليه.

وإذا كان الرسول ﷺ يقول: ﴿إِنَّمَا أَتَّبِعُ﴾، فكيف يحق لمن دونه أن يجعل هواه مصدرًا موازيًا للوحي؟ وكيف يضيف إلى دين الله ما لم يأذن به، أو يحرّم ما أحل، أو يهوّن ما عظّم، ثم يطلب من الناس أن يمنحوا قوله قداسة الدين؟

إن الدين لا يُخترع، بل يُتلقى. ولا يملكه عالم أو جماعة أو مؤسسة، بل الجميع يقفون تحت حكمه. وظيفة العالم أن يكشف مراد النص بصدق، لا أن يجعل النص لسانًا لرغباته.

﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

لم يقل: هذا بصر، بل ﴿بَصَائِرُ﴾؛ لأن القرآن يفتح للإنسان نوافذ متعددة يرى بها حقائق الوجود.

يبصر به نفسه: ضعفها، وكبرها، ومواضع خداعها.

ويبصر به عدوه: وساوسه، ومداخله، وتزيينه.

ويبصر به التاريخ: لا بوصفه تواريخ ملوك وحروب، بل سننًا أخلاقيةً ومصائر.

ويبصر به الدنيا: متاعًا إلى حين، لا وطنًا أخيرًا.

ويبصر به الآخرة: حقيقةً حاضرة في الميزان، وإن غابت عن العين.

ويبصر به ربه من خلال أسمائه وآياته، فيعبده على علم ومحبة وخوف ورجاء.

فالقرآن لا يضيف إلى الذاكرة معلومات فحسب؛ بل يمنح العين الداخلية قدرةً جديدةً على الرؤية. قد تبقى الأشياء نفسها أمامك، لكنك بعد القرآن لا تراها بالطريقة القديمة.

ترى النعمة مسؤولية، والمحنة رسالة، والقوة امتحانًا، والضعف باب افتقار، والموت عبورًا، والعمر فرصةً لا تتكرر.

﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

البصائر آتية من ربكم؛ من الذي يعرف تركيب نفوسكم ومواطن ضعفها، وما تخفي الصدور وما تصلحه. ليست

أفكارًا بشرية نبتت في بيئة محدودة، بل هداية من رب العالمين للإنسان الذي خلقه.

ولهذا حين يصف القرآن النفس لا يقف عند السطح. يدخل إلى المساحة التي يعجز الإنسان عن الاعتراف بها لنفسه: كبر إبليس، وغرور أصحاب القرية، ولهاث المنسلخ من الآيات، وخوف السحرة قبل السجود، وآثار العبودية في بني إسرائيل بعد العبور.

إنه لا يجامل الإنسان؛ لأنه يريد شفاءه. والطبيب الذي يخشى أن يسمي المرض باسمه لا يستطيع علاجه.

ثم وصف القرآن بأنه: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾.

هو بصائر تكشف، وهدى يقود، ورحمة تحتضن. فالقرآن لا يفضح أمراض النفس ليتركها عاريةً في اليأس؛ بل يكشف المرض ثم يفتح طريق الشفاء.

كشف خطيئة آدم، ثم علّمه دعاء التوبة.

وكشف ضلال بني إسرائيل، ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وكشف خطورة الذنب، ثم أعلن: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

إن الرحمة القرآنية ليست تغطيةً كاذبة للجراح، بل علاجها. لا تقول للمريض: لا مرض فيك، وإنما تقول: هذا مرضك، وهذا دواؤك، وباب الطبيب مفتوح.

﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

القرآن رحمة عامة من جهة إنزاله وبيانه، لكن الذي ينتفع به هو القلب الذي يفتح بابه للإيمان. فالشمس تشرق على النوافذ كلها، لكن النافذة المغلقة لا يدخلها الضوء.

وقد يغلق الإنسان نافذته بالكبر، أو بالتقليد، أو بالهوى، أو بالخوف على المصلحة. ثم يقول: لا أرى نورًا.

المشكلة ليست في غياب النور، بل في الحجاب الذي اختاره.

الفصل الخامس والثلاثون

أدب الاستماع

حين يصمت الضجيج ليبدأ القرآن عمله

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

بعد أن وصفت الآية القرآن بالبصائر والهدى والرحمة، بيّنت أدب تلقيه: ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾.

والاستماع أعمق من السماع. السماع قد يقع بلا قصد؛ تمر الكلمات على الأذن كما تمر أصوات الطريق. أما الاستماع فهو أن تتجه النفس إلى المتكلم، وأن تمنح الكلام حضورك.

والإنصات يزيد على سكوت اللسان؛ إنه إسكات الضجيج الداخلي الذي ينازع القرآن. فقد يصمت الفم، بينما يظل القلب مشغولًا بردّ الآية، أو إسقاطها على الآخرين، أو انتظار انقضاء التلاوة.

كم من إنسان يسمع القرآن وهو يعدّ به أخطاء خصومه! كلما جاءت آية في النفاق تذكر فلانًا، وكلما جاءت آية في الظلم رأى جماعةً أخرى، ولا تمرّ الآية به هو.

هذا سماع يجعل القرآن مرآةً يحملها في وجوه الناس، ولا ينظر إليها مرةً واحدة.

أما الإنصات الحقيقي فهو أن تقول للآية: ماذا تريدين مني؟

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ﴾.

إنه كلام له هيبة خاصة؛ لأنك لا تستمع فيه إلى تجربة مفكر، ولا إلى خيال أديب، ولا إلى حكمة بشر مهما علت، بل إلى كلام الله المنزل.

وحين يستقر هذا المعنى في القلب، يتغير مجلس التلاوة. لا تصبح الآيات خلفيةً صوتية، ولا مادةً للزينة، ولا نغمًا مجردًا يطرب الأذن ثم يترك الحياة كما هي.

جمال الصوت باب، لكنه ليس الغاية. الغاية أن يعبر كلام الله من الأذن إلى القلب، ومن القلب إلى الإرادة، ومن الإرادة إلى العمل.

وما أشد خسارة من بكى من جمال التلاوة، ثم لم يبكِ من قبح مخالفته! فقد تأثر بالنغمة، ولم يصل بعد إلى سلطان المعنى.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

جعلت الآية الرحمة قريبةً من الإنصات. وكأن أول طريق الرحمة أن تمنح كلام الله فرصةً كاملةً ليصل إليك.

فكثير من الناس لا يرفضون القرآن صراحةً، لكنهم لا ينصتون إليه بما يكفي كي يغيرهم. يقرؤونه وهم يحملون إجاباتهم السابقة، فإذا خالفها النص بحثوا عن مخرج، وإذا وافقها احتفوا به.

أما الإنصات فهو استعداد للتغيير، لا مجرد استعداد للفهم. أن تدخل على القرآن وأنت تقبل أن يهدم فيك بناءً قديمًا، وأن يسحب منك رأيًا أحببته، وأن يعيد ترتيب ولاءاتك.

القرآن الذي لا يغيّر شيئًا في قارئه قد يكون قد وصل إلى صوته، ولم يصل بعد إلى مركز قراره.

إن الإنصات للقرآن يحتاج إلى تواضع؛ لأن المتكبر لا يسمع إلا نفسه. وحتى حين يصغي إلى غيره، فإنه لا يفعل ليتعلم، بل ليبحث عن موضع يرد منه.

ولذلك كانت أول معصية في السورة امتناعًا عن السجود بسبب الكبر، وكانت خاتمتها إنصاتًا وسجودًا. كأن السورة تردّ على موقف إبليس بمنهج كامل:

هو قال: أنا خير منه.

والمؤمن يقول: الله أعلم مني.

هو اعترض على الأمر.

والمؤمن ينصت للوحي.

هو أبى أن يسجد.

والمؤمن يضع جبهته لله.

وهكذا ليست الهداية في كثرة المعلومات وحدها؛ بل في الأدب الذي تستقبل به الأمر.

الفصل السادس والثلاثون

الذكر الخفي

أن يبقى القلب موصولًا حين يغيب الناس

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾.

بعد الاستماع إلى كلام الله، يأتي ذكر الله. الوحي ينزل من الله إلى القلب، والذكر يصعد من القلب إلى الله؛ وبهما تكتمل حياة الروح: تلقٍّ واستجابة.

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ﴾.

لم يقل: اذكر اسمًا مجردًا، بل ﴿رَبَّكَ﴾؛ الذي خلقك، وربّاك، وسترك، وأمهلك، ونقلك بين ضعف وقوة، وفتح لك باب الرجوع بعد كل زلة.

حين تقول: يا رب، فأنت تستدعي تاريخًا كاملًا من الرعاية، أكثره لم تنتبه إليه.

﴿فِي نَفْسِكَ﴾.

هناك، في المكان الذي لا يسمعك فيه أحد، تنكشف حقيقة الصلة. فقد يذكر اللسان أمام الناس طلبًا للمكانة، أما الذكر الخفي فلا جمهور له.

إن العبادة السرية تعيد للروح إخلاصها؛ لأنها تحررها من الحاجة إلى شهادة البشر. يعرف العبد أن الله يسمعه، فيغنيه علم الله به عن الإعلان.

وما أحوج القلب إلى مساحةٍ لا يدخلها الناس! لحظة يكون فيها العبد وحده مع ذكر ربه؛ لا يشرح نفسه، ولا يصنع صورته، ولا ينتظر إعجابًا.

في تلك اللحظات يستعيد الإنسان وحدته الداخلية بعد أن بعثرته نظرات الخلق.

﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾.

التضرع انكسار الحاجة، والخيفة خشية القرب والهيبة. ليس الذكر حركة لسان آلية، بل قلب يعرف من يذكر.

قد يكرر الإنسان الكلمات بينما روحه غائبة، فتظل الكلمات على الباب. أما إذا حضر افتقاره، أصبحت الكلمة الواحدة أوسع من خطاب طويل.

﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾.

ليس المقصود منع الجهر المشروع في مواضعه، وإنما بيان أدب الذكر الذي يخلو من التكلف والصياح. فالله لا يحتاج إلى أن ترفع صوتك ليسمعك، وإنما تحتاج أنت إلى أن تخفض ضجيجك لتسمع فقر قلبك.

الصوت المنخفض قد يحمل من الصدق ما لا تحمله الخطب المرتفعة. فالله يسمع ارتعاش الدعاء قبل حروفه، ويعلم الحاجة قبل أن تجد لها عبارة.

﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾.

في أول النهار وآخره؛ عند فتح صفحة اليوم وعند إغلاقها. كأن الذكر قوس من النور يحيط بالزمن، حتى لا تبدأ يومك غريبًا عن ربك، ولا تنهيه محمّلًا بالدنيا وحدها.

في الغدو يحتاج الإنسان إلى ذكر يحدد اتجاهه قبل أن تتخاطفه المهام. وفي الآصال يحتاج إلى ذكر يغسل عن قلبه غبار النهار، ويعيد إليه موازينه بعد أن اختلط بأصوات الناس.

ومن بدأ يومه بالله لم تعصف به التفاصيل بسهولة، ومن ختمه بالله لم يذهب إلى فراشه حاملًا العالم كله فوق صدره.

﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾.

لم تقل: لا تغفل لحظة؛ فالإنسان يعرض له النسيان. إنما نهت أن يكون من الغافلين؛ أن تتحول الغفلة من عارض إلى هوية، ومن لحظة إلى إقامة.

الغافل قد يذكر الله أحيانًا، لكن الأصل في حياته الغياب. والذاكر قد يغفل أحيانًا، لكن قلبه يعرف طريق العودة.

والفرق بينهما ليس أن أحدهما لم يسقط، بل أن له وطنًا يرجع إليه.

لقد تكررت الغفلة في السورة بوصفها أصلًا للهلاك: غفل أصحاب القرى عن الآيات، وغفل آل فرعون، وغفل المكذبون عن الآخرة. ولهذا تأتي الوصية الأخيرة كأنها خلاصة النجاة: ا تسمح للغفلة أن تصبح وطنك.

الفصل السابع والثلاثون

السجدة الأخيرة

نهاية الرحلة عند العتبة التي رفضها إبليس

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾.

هكذا تنتهي سورة الأعراف.

بدأت قصة الإنسان بأمرٍ بالسجود: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾.

فامتنع إبليس استكبارًا.

وتنتهي السورة بمشهد الملائكة الذين لا يستكبرون عن عبادة الله: ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾.

بين السجودين تمتد السورة كلها. فمن أبى السجود سلك طريق إبليس، ولو جمع من المعرفة ما جمع. ومن سجد لله

انضم إلى موكب العبودية الذي لا يرى في الانحناء للحق نقصًا، بل غاية الكرامة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾.

إذا كان الملائكة مع قربهم وطهارتهم لا يستكبرون عن عبادته، فكيف يستكبر الإنسان، وهو الخارج من طين، والمحمول بين ضعفَين، والمحتاج في كل نَفَس؟

الملائكة لا تقول: بلغنا مقامًا يعفينا من السجود. كلما علا مقامهم ازدادت عبوديتهم.

وهذه علامة القرب الصحيح: من اقترب من الله ازداد تواضعًا، ومن ظن أن علمه أو عبادته يمنحانه حق التعالي على الناس، فقد اقترب من نفسه لا من ربه.

إن المعرفة بالله تكسر الكبر؛ لأنك حين تعرف عظمته ترى حجمك الحقيقي، وحين تعرف رحمته لا تحتقر عباده، وحين تعرف غناه تدرك فقرك، وحين تعرف علمه تستحيي من دعوى الإحاطة.

﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾.

الاستكبار عن العبادة هو المرض الذي تناثرت صوره في السورة:استكبر إبليس عن السجود.

واستكبر قوم نوح عن الرسالة.

واستكبرت عاد بقوتها.

واستكبرت ثمود بعمرانها.

واستكبر قوم لوط على الطهارة.

واستكبر قوم شعيب بمصالحهم.

واستكبر فرعون بسلطانه.

واستكبر أصحاب السبت على الحدّ الإلهي فتحايلوا عليه.

وانسلخ صاحب الآيات منها لأنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه.

تختلف الأعراض، والمرض واحد: ذاتٌ لا تقبل أن يكون فوقها أمر.

ولهذا كانت العبادة علاجًا للكبر قبل أن تكون مجموعة أعمال. في الصلاة يترك الإنسان أعماله، ويقف مع غيره في صف واحد، ثم يضع أعلى موضع فيه ـ جبهته ـ على الأرض.

السجود عملية تحرير من وهم العظمة.

﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾.

التسبيح تنزيه لله عن كل نقص. وهو أيضًا تنزيه تصورنا عنه من أوهامنا البشرية. الله لا يُقاس بمخلوقاته، ولا تحيط به العقول، ولا تبلغه الصور.

سبحانه في أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه.

وحين لا يفهم الإنسان حكمة قدرٍ من أقداره، يقول: سبحانك، علمك أكمل من علمي. وحين تعجز اللغة عن الإحاطة

بجلاله، تنتهي إلى التسبيح؛ لأن التسبيح اعتراف بأن الله أعظم من كل ما تستطيع العبارة أن تقوله.

بدأ موسى بعد إفاقته بقوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾، ويختم الملائكة السورة بالتسبيح. فكأن المعرفة حين تبلغ أقصاها لا تتحول إلى ادعاء الإحاطة، بل إلى تنزيه وسجود.

﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾.

قدّم الجار والمجرور: ﴿وَلَهُ﴾، لإبراز إخلاص السجود له وحده. لا يسجدون معه لصنم، ولا لسلطان، ولا لهوى، ولا لصورتهم في أعين الناس.

إن الجبهة لا تسجد في الصلاة إلا لله، لكن القلب قد يسجد خارجه لأشياء كثيرة. فقد ينحني للخوف، أو للمصلحة، أو للثناء، أو للشهوة.

والتوحيد الكامل أن يتبع سجود الجبهة سجود القرار؛ فلا تعبد الله في المسجد، ثم تعبد مزاج الناس في مواقفك. ولا

تقول في الصلاة: الله أكبر، ثم يبدو المال أو المنصب أو الجماعة في حياتك أكبر من أمر الله.

السجود الحق ليس وضع الرأس على الأرض فقط، بل رفع كل شيء من مقام الألوهية في القلب إلا الله.

الأعراف: السورة التي كشفت الإنسان للإنسان

بعد هذه الرحلة الطويلة، ندرك أن سورة الأعراف لم تكن تعرض تاريخًا خارجيًا فحسب. كانت تنقّب في تاريخ النفس؛ فكل شخصية فيها تحمل إمكانيةً كامنة داخل الإنسان.

فيه شيء من آدم حين يخطئ ثم ينكسر.

وقد يتسلل إليه منطق إبليس حين يعرف الحق ويستثقل الاعتراف.

وفيه خوف السحرة قبل السجود، وشجاعتهم بعده.

وفيه حنين بني إسرائيل إلى الصنم بعد نجاتهم من فرعون.

وفيه قابلية أصحاب السبت للتحايل على الحد.

وفيه خطر صاحب الآيات حين يجره الهوى إلى الأرض.

وفيه طمع أصحاب الأعراف، وهم ينظرون إلى الجنة ويقولون بقلوبهم: ربنا أدخلنا في رحمتك.

لم تضع السورة الناس في صناديق بعيدة، بل وضعت احتمالاتهم داخلنا. ليس فرعون مجرد رجل غرق في التاريخ؛ قد تكون في الإنسان فرعونية صغيرة حين يريد أن يحتكر القرار، أو يقول لغيره بلسان الحال: لا تؤمن ولا تفكر قبل أن آذن لك.

وليس العجل تمثالًا قديمًا فحسب؛ قد يكون كل شيء نصنعه بأيدينا ثم نسمح له أن يحكم قلوبنا.

وليس الأعراف جبلًا بين الجنة والنار فحسب؛ بل هو موضع الرؤية الذي يصنعه القرآن في النفس، فترى من ارتفاع الوحي نهايات الطرق قبل أن تسلكها.

السورة وخريطة المصير

تبدأ خريطة المصير من سؤال بسيط في لفظه، عظيم في أثره:

هل تتبع ما أنزل الله، أم تتبع أولياء من دونه؟

ثم تتفرع الطرق:

من تواضع للحق سجد، ومن تعاظم عليه هبط.

من اعترف بخطيئته عاد، ومن بررها تحولت خطيئته إلى مشروع.

من شكر النعمة ارتقى بها، ومن اغتر بها استُدرج.

من أخذ الكتاب بقوة تحرر، ومن ورث ألفاظه وباع ميثاقه خسر.

من نظر إلى العاقبة صغر في عينه بريق البداية، ومن أخلد إلى الأرض ظل يلهث ولو ملكها.

ثم تنتهي الخريطة عند مشهدين: قوم استكبروا فأغلقت عليهم النار، وعباد لم يستكبروا فسجدوا.

وبينهما يكتب الإنسان مصيره في كل اختيار صغير.

إن المعركة بين الحق والباطل لا تقع مرةً واحدة. إنها تتجدد صباحًا ومساءً داخل النفس:

حين يقول لك الحق: اعتذر، ويقول الكبر: ستسقط هيبتك.

حين يقول لك الحق: أنصف خصمك، ويقول الهوى: ستمنحه انتصارًا.

حين يقول لك الحق: قف عند الحد، وتقول الشهوة: اقترب قليلًا.

حين يقول لك الحق: اصدع بالكلمة، ويقول الخوف: رزقك ومكانتك.

حين يقول لك الحق: تب، ويقول الشيطان: لقد تأخرت كثيرًا.

في كل هذه اللحظات تعود قصة آدم وإبليس، ويُعاد عرض الطريقين، وتنتظر الصحيفة جوابك.

والسورة لا تريد أن تتركنا مذعورين أمام هذا الصراع، بل تمنحنا زاد النجاة:

كتابٌ هو بصائر.

وتوبة تقول: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾.

ودعاء يجمع الخوف والطمع.

وذكر خفي في الغدو والآصال.

واستعاذة عند نزغ الشيطان.

وصحبة للحق لا للجمهور.

وقلبٌ ينصت.

وجبهةٌ تسجد.

وهكذا لا ينجو الإنسان لأنه لم يواجه الفتنة، بل لأنه كلما أدركه طائف منها تذكر فأبصر، وكلما زلّ عاد، وكلما أحاطت به الأصنام قال: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾.

ثم يضع جبهته على الأرض، فيرتفع.

وهذه هي المفارقة الأخيرة التي تودعها سورة الأعراف في القلب:

من أراد الارتفاع بنفسه هبط كما هبط إبليس، ومن خفض نفسه لله ارتفع كما ارتفع الساجدون.

خَاتِمَةُ الْكِتَابِ

حين تنتهي الرحلة بالسجود

نصل إلى نهاية سورة الأعراف، لكننا لا نخرج منها كما دخلنا. فقد أخذتنا السورة من أول لحظةٍ وقف فيها الكبر أمام الأمر، إلى آخر لحظةٍ وضعت فيها العبودية جبهتها على الأرض. وبين امتناع إبليس وسجود الملائكة رأينا قصة الإنسان كلها: صعوده وهبوطه، بصره وعماه، حريته وعبوديته، معرفته وغفلته، توبته وإصراره.

بدأت الرحلة بصدر الرسول ﷺ وهو يحمل ثقل الكتاب: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾.

وانتهت بقلب المؤمن وهو ينصت إلى هذا الكتاب، ويذكر ربه، ويسجد له. وكأن السورة سلّمت الوحي من صدر الرسول إلى قلب القارئ، ثم سألته: ماذا ستفعل بما وصل إليك؟

فليس نزول الكتاب هو نهاية الرحلة، بل بدايتها. ولا يكون القرآن هدايةً لمجرد وجوده بين أيدينا، حتى يتحول إلى ميزانٍ فوق أهوائنا، ونورٍ داخل قراراتنا، وسلطانٍ نرجع إليه حين تختلف الأصوات.

لقد كشفت السورة أن المعركة الأصلية لا تبدأ بين الإنسان وعدوّ خارجي، بل بينه وبين «الأنا» التي تريد أن تنازع الحق سلطانه.

قال الله لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾.

كان الأمر واضحًا، لكن الذات المتضخمة صنعت اعتراضها: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾.

ومن تلك الجملة خرج تاريخ طويل من الاستعلاء. فالطاغية الذي يرى نفسه فوق الناس يعيد العبارة ذاتها، والعالم الذي يستثقل الرجوع إلى الحق يقولها في صورة أخرى، والجماعة التي تحتكر الفضيلة لنفسها تكرر منطقها،

والإنسان الذي يحتقر غيره لأصله أو فقره أو ضعفه يحمل في قلبه صدى ذلك الموقف الأول.

إن «أنا خير منه» ليست جملة انتهت؛ إنها مرض يبحث في كل عصر عن لسانٍ جديد.

ولذلك كانت النجاة في كسر مركزية الذات، لا في إلغائها، بل في وضعها داخل مقام العبودية. أن يعرف الإنسان قدره: مكرّم لأنه عبد لله، ومحدود لأنه مخلوق، وقادر على الاختيار لكنه لا يستغني عن التوفيق.

وفي مقابل إبليس وقف آدم عليه السلام. أخطأ، لكنه لم يجعل خطأه تعريفًا أبديًا لنفسه. لم يقل: إن الشيطان هو المسؤول وحده، ولم يحوّل ضعفه إلى حجة، بل قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾.

ومن هنا علمتنا السورة أن الإنسان لا يُقاس فقط بلحظة سقوطه، بل بالاتجاه الذي يسلكه بعدها. فهناك من تسقط

قدمه فيعود إلى ربه، وهناك من يسقط ثم يبني حول الحفرة قصرًا من الأعذار ويسميه موقفًا.

الاعتراف ليس إهانةً للنفس، بل تحرير لها من عبء الكذب. والتوبة ليست محوًا للماضي فحسب، بل إعادة توجيه للمستقبل. إنها اللحظة التي يتوقف فيها الإنسان عن الدفاع عن خطئه، ويبدأ الدفاع عن بقية عمره.

ومن أعظم رحمة الله أن طريق آدم بقي مفتوحًا لكل بنيه: مهما طالت المسافة، يستطيع العبد أن يقول بصدق: ظلمت نفسي. وعند هذه الكلمة تنكسر سلالة إبليس في داخله، ويبدأ نسبه الروحي إلى آدم التائب.

ثم مررنا بموكب الأنبياء؛ نداء واحد يواجه أمراضًا مختلفة: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.

قالها نوح في وجه التقليد.

وقالها هود في وجه الغرور بالقوة.

وقالها صالح في وجه حضارة نحتت الجبال ولم تهذب نفوسها.

وقالها لوط في وجه شهوة انقلبت على الفطرة.

وقالها شعيب في سوقٍ فصل الميزان عن الإيمان.

وقالها موسى في قصرٍ ادعى صاحبه حق السيادة على الأجساد والضمائر.

كانت العبارة واحدةً لأن المرض الأعمق واحد: أن يمنح الإنسان شيئًا من خصائص العبودية لغير الله. وقد يكون ذلك الغير حجرًا، أو طاغيةً، أو مالًا، أو شهوةً، أو موروثًا، أو صورة الذات.

والتوحيد في السورة لم يكن فكرةً ذهنيةً جامدة؛ كان قوة تحرير. حرّر القلب من الصنم، والإنسان من فرعون، والسوق من الغش، والغريزة من الفوضى، والعقل من التقليد، والعالم من بيع النصوص.

فحين يقول الإنسان: لا إله إلا الله، فهو لا ينفي صنمًا حجريًا وحده؛ بل ينزع عن كل شيء حق التحكم المطلق في قلبه.

ورأينا أن الأنبياء لم يكونوا أصحاب خصومات شخصية مع أقوامهم. كانوا يقولون لمن آذاهم: ﴿يَا قَوْمِ﴾.

ويقول نوح: ويقول هود: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾.

إن الداعية الصادق لا يتخذ من هلاك خصمه أمنية؛ لأنه يرى خلف المكذب روحًا يمكن أن تعود. ينكر الباطل بقوة، لكنه لا يترك الكراهية تفسد قلبه.

وقد علّمتنا السورة أن النصح لا يقاس بسرعة استجابة الناس؛ فالناصح يؤدي مسؤوليته ﴿مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾. يقول الكلمة لأنه لا يملك أن يعلن موت قلبٍ ما دام الله قد أبقى فيه الحياة.

غير أن النصيحة نفسها تحتاج إلى تقوى، حتى لا تصبح غطاءً لحب السيطرة. فالمصلح خادم للحقيقة، لا مالك للناس؛ يدلهم على الباب، ولا يدّعي أن مفاتيح الرحمة في يده.

ثم وقفنا أمام فرعون، فرأينا الطغيان لا بوصفه رجلًا منفردًا، بل منظومة كاملة: حاكم يدّعي العلو، وملأ يزينون له، وخبراء يستخدمون مهاراتهم لخدمته، وجمهور يُخاف من التغيير، ومستضعفون تركت العبودية آثارها في نفوسهم.

قال فرعون للسحرة: ﴿آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾.

وهنا ظهر جوهر الاستبداد: الرغبة في امتلاك باطن الإنسان بعد امتلاك ظاهره. فالطاغية لا يريد طاعة اليد فقط، بل يريد من الضمير أن ينتظر إذنه قبل أن يرى الحقيقة.

لكن سجدةً واحدة أفسدت مشروعه كله. دخل السحرة الساحة يسألون عن الأجر والقرب، ثم خرجوا من سلطان فرعون بقولهم: ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾.

لقد اتسعت رؤيتهم فجأةً، فصار الموت الذي يهددهم طريقًا إلى الله، وصار فرعون ـ بكل سلطانه ـ عاجزًا عن أن يملك ما بعد الموت.

وهذه هي الحرية التي تصنعها الآخرة: من عرف أنه منقلب إلى الله، ضاقت في عينه قدرة الطاغية. قد يخاف الألم، لكنه لا يبيع الحق لينجو منه؛ لأن النجاة الجسدية ليست أعلى أنواع النجاة.

ثم انشق البحر وسقط فرعون، لكن السورة لم تسمح لنا أن نتصور أن نهاية الطاغية تعني اكتمال التحرير.

فما إن عبر بنو إسرائيل حتى قالوا: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾.

خرجوا من مصر، ولم تخرج مصر الفرعونية كاملةً من نفوسهم. تحررت الأجساد، وبقيت الروح تبحث عن صنم محسوس تتعلق به.

ومن هنا تعلمنا أن إسقاط الظالم أسهل من اقتلاع منطقه من النفوس. فقد يحمل المظلوم في داخله صورةً صغيرة من ظالمه، وينتظر فقط أن تتبدل المواقع. ولذلك قال موسى لقومه بعد وعد الاستخلاف: ﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

فالتمكين لا يمنح صك البراءة؛ بل يفتتح امتحانًا جديدًا. في الاستضعاف يُختبر الصبر، وفي القدرة يُختبر العدل. ومن كان يرفض الطغيان لأنه وقع عليه فقط، قد يعيده حين تقع العصا في يده.

أما من رفضه لأنه ظلم، فسيقاومه ولو كان المستفيد منه.

وتوقفنا أمام العجل الذي صنعوه من حليّهم، فرأينا كيف يتحول الشيء من نعمة إلى وثن حين ينتقل من اليد إلى القلب.

لقد صنعوا العجل، ثم انحنوا له. وهذه هي المفارقة التي تتكرر في حياة البشر: يصنع الإنسان شيئًا ليخدمه، ثم يسمح له أن يستعبده. يصنع المال وسيلة للتبادل، ثم يقيس به قيمة نفسه والناس. ويصنع المنصب لتنظيم العمل، ثم يجعل بقاءه فيه أغلى من الحق. ويصنع الجماعة لخدمة الفكرة، ثم تتحول الجماعة إلى صنم يُضحّى بالفكرة لأجله.

الأصنام لا تبدأ دائمًا من الحجر؛ قد تبدأ من معنى مشروع يتضخم حتى يحتل مقامًا ليس له.

ولهذا لا يكفي أن تتحطم التماثيل في الخارج؛ ينبغي أن تُفتش القلوب عن مواضع العكوف الخفي. فقد تكون الجبهة ساجدةً لله، بينما القرار ساجد للخوف أو المصلحة.

وعند أصحاب السبت رأينا عقلًا لم ينكر الأمر، لكنه استعمل ذكاءه لاغتيال غايته. أرادوا صورة الامتثال بلا حقيقته، فاحتالوا على الحد الإلهي.

وهنا كشفت السورة أن العقل لا يكون هاديًا بذاته؛ فهو يستطيع أن يخدم التقوى، ويستطيع أن يخدم الشهوة. وإذا صار الهوى هو القاضي، تحول العقل إلى محامٍ بارعٍ يبحث عن الثغرات.

إن أخطر التحايل ما منح صاحبه شعورًا كاذبًا بالطاعة. فالعاصي الصريح قد يوقظه الندم، أما المتحايل فقد أحاط معصيته بتفسير يمنع الندم من الوصول إليها.

والله لا ينظر إلى الصورة التي صنعها الإنسان لفعله، بل إلى حقيقته ومقصده. لا تخدعه الحيلة، ولا تتحول المخالفة طاعةً لأن صاحبها أتقن وصفها بعبارات شرعية.

وعند ورثة الكتاب رأينا مأساة العلم حين يُباع بعرض الأدنى: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾.

لم يكونوا جاهلين؛ بل ﴿دَرَسُوا مَا فِيهِ﴾. لكن المعرفة لم تمنعهم من البيع، وإنما منحتهم لغةً يبررون بها الصفقة.

وهذه أخطر خيانة للعلم: أن يستعمل العالم النص ليحمي المصلحة من حكم النص. فينتقي، ويؤوّل بلا دليل، ويسكت في الموضع الذي يجب فيه البيان، ثم يتكلم طويلًا فيما لا يكلّفه شيئًا.

إن ميثاق الكتاب ألا نقول على الله إلا الحق؛ لا الحق الذي يرضي جماعتنا، ولا الذي يحفظ موقعنا، بل الحق ولو عاد على أنفسنا بالمراجعة.

فالعالم ليس مالكًا للوحي؛ هو أول من يجب أن يقف تحته.

ثم وقفنا أمام الرجل الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها. وكان مشهده من أكثر مشاهد السورة إثارةً للخوف؛ لأنه لم يكن جاهلًا ضل الطريق، بل عالمًا عرف ثم اتبع هواه.

كانت الآيات قادرةً أن ترفعه، لكنه: ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾.

وكأن المعرفة كانت تجذبه إلى أعلى، والشهوة تشده إلى أسفل، فاختار أن يلتصق بالتراب. ثم تحول إلى لهاث لا ينتهي: ﴿إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾.

إنها صورة الإنسان حين تصبح الدنيا أكبر من أن يشبع منها. يُعطى فيطلب المزيد، ويُمنع فيحترق على ما فاته. لا راحة له في الوصل ولا في الحرمان؛ لأن المشكلة لم تعد في مقدار ما يملك، بل في القلب الذي فقد معنى الاكتفاء.

وهكذا علّمتنا السورة ألا نغتر بما نعرف. فالعلم نعمة، لكنه ليس ضمانة مستقلة للثبات. والقلوب لا يحفظها مخزون المعلومات، بل صدق الافتقار إلى الله.

كم نحتاج أن نقول عند كل معرفة جديدة: يا رب، ارفعنا بها ولا تجعلها حجةً علينا.

ومن الأعراف نظرنا إلى المصيرين. رأينا أهل الجنة وقد نُزع الغل من صدورهم، وأهل النار يطلبون قطرة ماء.

ورأينا المتبوعين والأتباع يتبادلون اللعن بعد أن كانوا في الدنيا يتبادلون المدح والولاء.

هناك انكشفت حقيقة الصحبة: من أعانك على الباطل لم يكن يحبك، وإن بالغ في إرضائك؛ لأنه سيتركك عند العاقبة أو يتحول إلى خصمك.

وانكشفت حقيقة الموازين: ما عظمه الناس قد يكون خفيفًا، ومن احتقروه قد تدركه رحمة الله. وسقطت الألقاب والأموال والجماهير، وبقي العمل والقلب.

أما أهل الجنة فقالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾.

لم يدخلوا الجنة بالإعجاب بأنفسهم، بل بالحمد. عملوا، لكنهم رأوا التوفيق. ثبتوا، لكنهم عرفوا من ثبّتهم. وهذا هو توازن المؤمن: يبذل وسعه كأن كل خطوة مسؤوليته، ثم ينسب الفضل إلى الله كأن لا شيء تم إلا برحمته ـ وهو الحق.

ووقفت السورة مرارًا عند النعمة، فكشفت أنها ليست دليل رضا مطلقًا، بل امتحان قد يكون أدق من الشدة.

قال أصحاب القرى حين تبدلت الضراء سراء: ﴿قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾.

رأوا التحولات، ولم يقرؤوا رسالتها. وجاءهم العطاء، فلم يزدهم إلا غفلةً، حتى أُخذوا بغتة.

إن النعمة لا تُقاس بحجمها، بل بأثرها. ما قرّبك إلى الله نعمة وإن كان قليلًا، وما أبعدك عنه فتنة وإن ملأ يديك.

والبركة التي وعد الله بها أهل الإيمان والتقوى ليست كثرةً عمياء، بل انسجام النعمة مع غايتها: مال يؤدي حقه، وعلم يهدي، وقوة تعدل، ووقت يثمر، وعلاقات تمنح السكينة.

وقد يملك الإنسان الكثير ويعيش في فقر البركة؛ لأن كل شيء عنده يستهلك شيئًا منه.

وفي قلب السورة ظلت الرحمة حاضرةً، لا رحمةً رخوة تلغي الحدود، بل رحمةً تفتح طريق العودة: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

وسعتها لا تعني أن يستوي الإصرار والتوبة، بل أنها بلغت العاصي بالدعوة، وأمهلته، وأرسلت إليه الإنذار، وفتحت له الباب. فمن أراد نصيبه الخاص منها، سار إليها بالتقوى والإيمان والإصلاح.

الرجاء ليس أن تقيم بعيدًا عن الله وتطمئن إلى رحمته، بل أن تركض إليه لأن رحمته واسعة. وليس أن تقول: سيغفر لي، ثم تعود إلى الذنب نفسه كلما جاءك عرضه؛ بل أن تقول: سيغفر لي، ولذلك لن أهرب منه بعد اليوم.

إن الرحمة لا تمنحنا حق الاستهانة بالخطيئة، بل تمنحنا القوة كي لا نيأس أمامها.

ثم حملتنا السورة إلى ميثاق الفطرة: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾.

وفي هذا الميثاق عرفنا أن الإيمان ليس فكرةً غريبةً تُفرض على الإنسان من خارجه، بل عودة إلى أعمق حقيقة فيه. إن في الروح معرفةً أولى بربها، وقد يغطيها الموروث أو الهوى، لكن الوحي يأتي ليوقظها.

وحين يسمع القلب القرآن بإنصاف، يشعر أنه لا يسمع صوتًا غريبًا تمامًا، بل يسمع جوابًا عن سؤال قديم يسكنه. لذلك لا يمنح القرآن الإنسان معلومات عن ربه فحسب؛ بل يعيده إلى نفسه التي ضاعت منه.

والكفر، في أحد أبعاده، اغتراب عن الأصل. أما التوبة فهي عودة إلى الوطن الأول: ربنا أنت ولينا.

وعند الأسماء الحسنى تعلّمنا أن معرفة الله هي مركز إصلاح النفس. فمن عرفه رقيبًا استحيا، ومن عرفه غفورًا رجع، ومن عرفه حكيمًا اطمأن، ومن عرفه رزاقًا تحرر من بيع دينه، ومن عرفه قويًا صغر الطغاة في عينه.

ليست الأسماء موضوعًا نظريًا، بل أبواب عبودية. كل اسم منها يداوي مرضًا في النفس، ويقيم علاقةً بين العبد وربه.

ومع ذلك وقفنا عند حد التنزيه: نؤمن بما أخبر الله به عن نفسه على الوجه اللائق بجلاله، من غير تشبيهٍ ولا تكييف. فالله ليس كمثله شيء، والعقل يعرف المعنى ولا يحيط بكيفية صفات الخالق.

وحين يبلغ العقل حدّه، لا يُلغى، بل يتأدب. وحين تعجز اللغة عن الإحاطة، تصل إلى مقام السجود أمام المعنى.

وأخيرًا انتهت السورة بثلاثة أعمال تختصر طريق النجاة:

الإنصات، والذكر، والسجود.

الإنصات يحرر الإنسان من ضجيج نفسه، فيسمع الوحي كما هو.

والذكر يحفظ حضوره مع الله في الغدو والآصال، حتى لا تصبح الغفلة هويته.

والسجود يهدم صنم «الأنا» الذي بدأ به السقوط الأول.

وكأن السورة تقول: إذا أردت ألا تسلك طريق إبليس، فأنصت حيث اعترض، واذكر حيث غفل، واسجد حيث استكبر.

ها نحن نغادر الأعراف، لكن الأعراف لا تغادرنا. لقد أصبح في داخلنا موضع مرتفع نرى منه الأشياء بصورة مختلفة. نرى الشهوة وفي نهايتها لهاث، والكبر وفي نهايته صغار، والطغيان وفي نهايته غرق، والتوبة وفي نهايتها رحمة، والصبر وفي نهايته وراثة، والسجود وفي نهايته ارتفاع.

ولم تعد قصص السورة أخبارًا عن الآخرين؛ لقد صارت أسئلةً تقف عند أبواب قراراتنا اليومية:

حين يظهر الحق، هل أسجد أم أقول: أنا خير؟

حين أخطئ، هل أعترف أم أبرر؟

حين أُعطى، هل أشكر أم أغتر؟

حين أمتلك القوة، هل أعدل أم أعيد إنتاج فرعون؟

حين أعرف، هل ترتفع بي الآيات أم أخلد إلى الأرض؟

وحين يُقرأ القرآن، هل أسمع صوتًا جميلًا أم أنصت لنداء يطلب أن يغيرني؟

إن أعظم ما تمنحه سورة الأعراف لقارئها هو أن تردّ إليه مسؤوليته. لا الآباء عذر، ولا الجماعة عذر، ولا الشيطان يملك الإكراه، ولا الاستضعاف يمنح براءةً أبدية، ولا العلم يضمن الثبات، ولا النعمة تشهد وحدها بالرضا.

الإنسان مسؤول؛ لكنه ليس متروكًا. معه وحي يبصره، وربّ يفتح له باب التوبة، ودعاء يحمله، ورحمة وسعت كل شيء.

وما دام قادرًا أن يقول: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾، فلم تنتهِ قصته.

وما دام يستطيع أن يستعيذ إذا نزغه الشيطان، ويتذكر إذا مسه طائف، ويعود إذا غفل، فطريق النجاة مفتوح.

وما دامت جبهته قادرةً على السجود، ففيه إمكانية الارتفاع.

وهكذا تضع السورة يدها على الإنسان عند نهاية الرحلة، وترده إلى الحقيقة التي بدأ منها وجوده كله:

أن له ربًّا لا إله غيره، وكتابًا يهديه، وعدوًّا يحذره، ونفسًا يزكيها، وعمرًا محدودًا يمتحن فيه، ثم عودةً لا مفر منها إلى الميزان.

فطوبى لمن جعل القرآن بصيرته، والتقوى لباسه، والتوبة طريقه، والعدل ميزانه، والله وليه.

وطوبى لمن خرج من سورة الأعراف وقد سقط من قلبه صنم، وانفتح فيه باب، وانحنت فيه «الأنا» للحق.

وطوبى لمن انتهت رحلته كما انتهت السورة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾.

تم بحمد الله